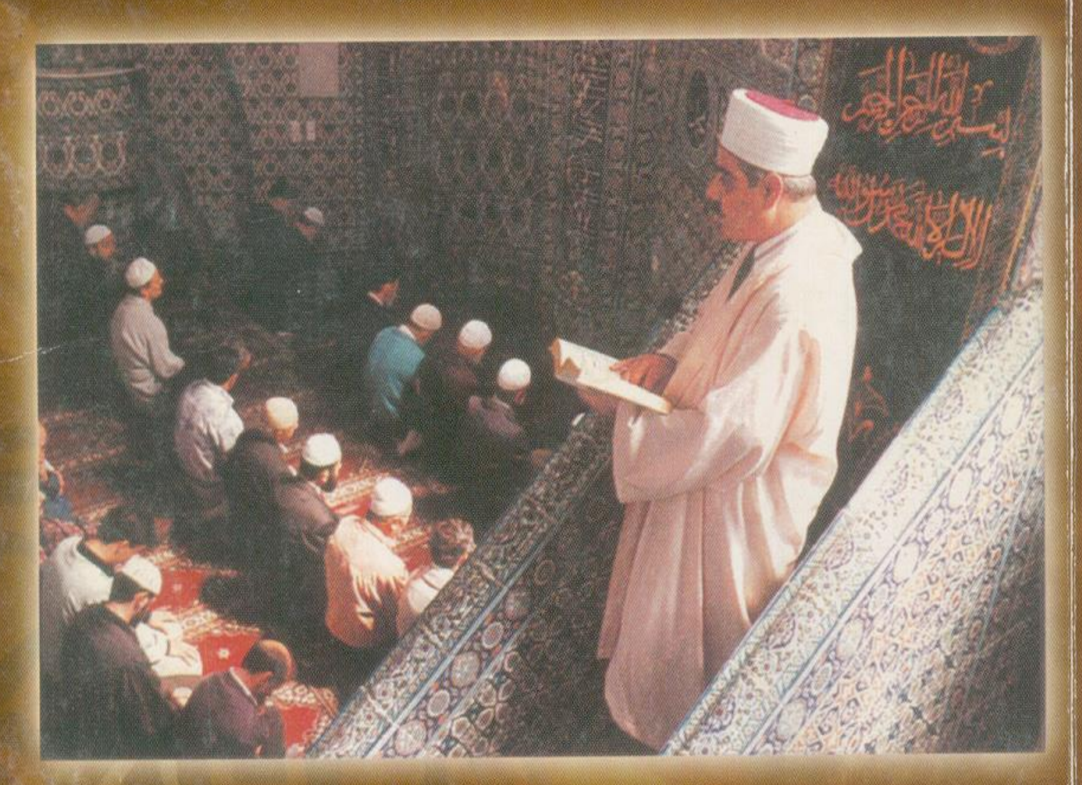
المنبر وسيلة اتصال جماهيرية



الدكتور / عوض إبراهيم عوض

المنبر وسيلة اتصال جماهيرية

دار المؤتمن للنشر والطباعة والتأليف

2002م

فهرسة مكتبة المؤتمن، بدار الإحسان

عوض إبراهيم عوض

المنبر وسيلة اتصال جماهيرية

184 ص؛ 17×24 سم

الطبعة الأولى

مايو 2002م

	**دار المؤتمن للطباعة والتأليف** **- العلم حق لجميع الناس -**

المنبر وسيلة اتصال جماهيرية

◆◆◆

د. عوض إبراهيم عوض

دار المؤتمن للطباعة والتأليف





﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

هُوَ الذي بَعَثَ في الأُميينَ رسولاً

منهم يتلو عليهِمْ آياتِه ويُزكِيهِمْ

ويُعَلِّمُهم الكِتابَ والحِكْمَةَ

وإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي

ضَلالٍ مُبينْ.

صدَقَ اللهُ العظيم

﴿الفهرست﴾

الفصل الرابع (بداية الخطابة قبل الإسلام)

الفصل الخامس (أهداف وأساليب الخطابة المنبرية)

إهداء:

إلى كل أبناء الأُمة الذين عايشوا صلف الجاحدين لقيمة التراث الإسلامي التليد وأنكروا دور المسلمين المضيء عبر التاريخ البشري. إلى كل من وضع حرفاً في سفر العقيدة الإسلامية التي أضاءت بنورها المشرق آفاق الشرق والغرب عبر العصور. إلى المناضلين بالكلمة الشريفة من أجل إعلاء راية الحق ودحض الباطل الذي كان وسيظلُّ زهوقاً مهما حشد له أهله من أساليب الضلال والقهر الفكري. إلى دعاة الحقيقة الناصعة من شباب الأمة الذين استماتوا واستُشهدوا في سبيل الله، أُهدي هذه السطور مفعماتٍ بروح الانعتاق من إسار الاستلاب الفكري والصلف الإعلامي الجديد.

عوض

بسم ا لله الرحمن الرحيم

❄❄❄❄❄

مدخل

هناك أمران أساسيان يسعى هذا الكتابُ لطرحهما من خلال الاستقراء التاريخي والعلمي لحقيقة المنبر، أولهما الإجابة عن سؤال هل المنبر وسيلة اتصال؟ وإذا كان ذلك كذلك فأيُ نوع من أنواع وسائل الاتصال هو؟

وإذا كانت للمنبر هذه الصفة فلماذا لم يضعه علماءُ الاتصال ضمن التصنيف الذي حوته المراجعُ الأكاديمية واعتمدته معظم المؤسساتِ من خلال مناهجها لعلم الاتصال؟ والأمر الثاني هو جدلية التقسيم الشكلي لوسائل الاتصال، وحقيقة مُجافاتها للواقع بحكم أن تأطيرها النهائي الذي لم يكتمل إلى اليوم اعتبره البعضُ منزهاً عن النقائص ولا يجوز تعديله بأي حالٍ من الأحوال.

ووفقاً لذلك فقد ظلت معظم مراجع علوم الاتصال الحديثة تدور في فلك التقسيم التقليدي الذي تمَّ من خلال اجتهادات أساتذة الاتصال الغربيين أمثال **(ولبر شرام)** Wilber Schram و **(مارشال ماكلوهان)** Marshal McCluhan و **(جون بِتْنَرْ)** John Bitner و **(هارولد لاسويل)** Harold Lasswell و **(والتر ليبمان)** Walter Lippmann وغيرهم.

فهل هذا هو القولُ الفصل في تصنيف هذه الوسائل المسماة بوسائل

الاتصال؟ وقبل الرد على هذه التساؤلات لا بد من التأكيدِ على مشروعية هذه الأسئلة من خلال استقراء الحقائق والواقع العلمي لوسائل الاتصال. في واقع الأمر أشار عددٌ من أساتذة الاتصال المسلمين إلى دور المنبر كأداة اتصال مهمة في تاريخ المسلمين [1]، ولكنهم وقفوا عند حدود الإشارة إلى هذا الدور بشكلٍ معمم لم يَخُضْ في التفاصيل وتأطير الملامح التي حدت بهم لاعتباره كذلك. ولذلك نستطيعُ أن نصف هذا التعميم بالقصور طمعاً في وضع الأمور في قوالبها الصحيحة. وذلك لأن التنظير العلمي لإضافة حقائق أو رفضها لا يتم بالبساطة التي قد تتبادر إلى الأذهان.

ومِنْ مؤشرات هذا القصور الذي نزعمه أنه لم يجرؤ واحدٌ من علماء المسلمين على وضع المنبر ضمن وسائل الاتصال الجماهيرية التي قصرها التصنيف الغربي على سبع وسائل هي: **(الصحيفة، والكتاب، والمجلة، والتسجيل الإلكتروني، والسينما، والراديو، والتلفاز).**

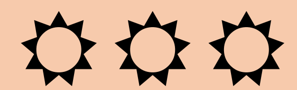
وقد اكتفى علماءُ المسلمين بالإشارة إلى المنبر كوسيلة اتصال، وذلك من خلال تسليط الضوء على الخاصية التاريخية لخطبة المنبر في ترسيخ مفهوم الدين وقضية العبادة كرابط أزلي بين

---

[1] حامد عبد الواحد، (1984م)، الإعلام في المجتمع الإسلامي، سلسلة دعوة الحق إدارة الصحافة والنشر، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة، صفحة 16.

العبد وربه. ومن ذلك ما ذهب إليه الكاتب **(محمد خير رمضان يوسف)** في كتابه من خصائص الإعلام الإسلامي، والكاتب الدكتور **(مرعي مدكور)** في كتابه الإعلام الإسلامي الطباعي، والشيخ **(محمد أبو زهرة)** في كتابه الشهير الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب، والكاتب **(يوسف محي الدين أبو هلالة)** في كتابه الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية.

ولعلَّ هذه الحقائق التي حوتها المراجعُ الإسلامية قد طرحت أمراً هاماً، ولكنه بدهيٌ، ولم يُسهم بالقدر المطلوب في طرق الأبواب لتمكين هذا الماردِ الإعلامي الخطير من الولوجِ وأَخْذِ مكانِهِ الحقيقي بين وسائل الاتصال العالمية. ولكن بالرغم من كل ذلك فإنَّ لهذه الإشاراتِ أهميتَها الخاصة في اختصار الطريق أمامَ هذا الكتاب لتخطي المراحل الأولى والقفز إلى تمييز الخصائص وترسيم الشكل المطلوب لتأطير هذه الوسيلة المُبعدة قسراً وعنوةً، وإتاحة معرفتها للحادبين على أمر التأصيل الحقيقي لعلم الاتصال.



الفصل الأول

❄❄❄❄❄

خاصية المنبر الاتصالية

الفصل الأول

خاصية المنبر الاتصالية

❄❄❄❄❄

إنَّ الحقيقة التي نريد تثبيتها من أول وهلة وقبل الخوض في التفاصيل هي أنَّ المنبر هو وسيلة اتصال ووسيلة إعلام بكل ما يحمله الاتصال والإعلام من معنىً علمي ومضمونٍ تخصصي. ولسنا نريد هنا تأكيد هذه الصفة بالشكل الذي فعله علماؤنا السابقون فحسب، وإنما نريدُ أنْ نؤكدَ وننبهَ العالم بأسره إلى حقيقةٍ أهم أغفلَها الجميع مسلمونَ وغيرُ مسلمين وهي أنَّ المنبر ليس فقط وسيلة إعلام فقط وإنما هو وسيلةُ اتصالٍ جماهيرية بكل التعريف العلمي الذي نقوم بتدريسه لطلابنا في كليات الإعلام ومعاهد الاتصال المتخصصة.

والفرق شاسعٌ بين اعتبار المنبر وسيلة إعلامية وبين اعتباره وسيلة اتصالٍ جماهيرية [2] كما سنشيرُ إلى هذا الأمر بتفصيلٍ أدق من خلال سطور هذا الكتاب.

ولكنْ قبلَ الخوض في التفاصيل لا بُدَّ أنْ نُشيرَ إلى أنَّ المنبر قد ظهر أساساً لتقديم خطبة المسجد التي كانت بمثابة وسيلة

---

[2] Boyd, Andrew. (1990), Broadcast Journalism: Teaching of Radio and TV Lews, London: Heinemann.

الإعلام الأساسية في دولة الإسلام الأولى، والتي اعتمدت على هذا النمط الاتصالي بحكم طبيعة المرحلة التي لم تشهد بَعْدْ توسعاً في أدوات الاتصال. ولكنَّ السبب الأهم من ذلك هو خاصية الديمومة في طبيعة المنبر التي جعلته مواكباً ومتجدداً في ذاته طوال المراحل حتى بعد بروز أدوات الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية.

وقد اكتسب المنبرُ تلك الخاصية من خلال تأثره بطبيعة الرسالةِ القرآنيةِ ذاتِها التي قضى اللهُ سبحانه وتعالى أن تكون ذات طبيعةٍ مُتجددةً، ولا تَبْلَى بكثرةِ الرد، ولا يملها سامُعُها مهما تقادمت العصور والأزمنة.

ولم يجد المنبرُ موضعاً في تصنيف أشكال الاتصال لأسبابٍ عديدة من أهمها أنَّ الذين قسموا هذه الوسائل هم العُلماء الغربيون. حيثُ تَمَّ التقسيمُ على مرحلتين كانت أولاهما تقسيم الاتصال من حيثُ الشكل، وهو الذي اقتضى أن تكون أقسام الاتصال هي:

1/ الاتصال الفردي Intrapersonal

2/ الاتصال الثنائي Interpersonal

3/ اتصال المجموعات الصغيرة Small group communication

4/ الاتصال الجمعي Public communication

5/ والاتصال الجماهيري Mass communication.

ولم يكن هذا التقسيم بهذا الشكل الذي طُرِح به شافياً لتوصيف الفعل الاتصالي بدليل أنَّ الاتصال الثنائي الذي قام على أساس العلاقة بين شخصين لا ثالثَ لهما اضْطُرَّ في نهايةِ المطاف أن يَجمعَ في إطاره الحوار الذي يتم بين ثلاثة أو خمسة أفراد ما دام العدد محصوراً ومادة الحوار مشتركة يتبادل فيها الجميع الحديث من خلال توظيف ردِّ الفعل الآني Immediate Feedback.

وحاول البعض تفادي هذه الإشكالية بإضافة الشكل الرابع للاتصال والذي أسموه الاتصال الجمعي. ولكن صعب تصنيف هذا النوع، وتحديد عدد المشاركين فيه، وتحديد ما إذا كان الجميعُ مشاركين في الحديث أم أن بعضهم مستمعون كما في حالة الفصل الدراسي أو المحاضرة العامة.

من ذلك حاول البعضُ اختصار الطريق باعتبار خُطبةِ المنبر مثل المحاضرة التي تُلقى على الدارسين في قاعات الدراسة، ورمزوا لها بالاتصال الجماعيGroup Communication[3]. ونحسبُ أنَّ علماء الاتصال الغربيين لم ولن يعتبروا المنبر من أدوات الاتصال الجماهيرية مهما كانت المبررات ومهما سقنا لهم من أساليب الإقناع، وذلك للعديد من الأسباب التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

---

[3] محمود محمد قلندر، (1999م)، الاتصال الجماهيري النظيات والوسائل والنماذج، دار يونيفيزيون للطباعة والنشر، كوالا لمبور، صفحة 26.

❖ أولاً: لعب عُنصرُ العداء المستفحل للإسلام ومعطياته الحضارية دوراً في غض النظر عن كل ما يمت إليه بصلة في إطار التوصيف العلمي لإفرازات المعرفة البشرية الحديثة. وقد نبع هذا العداء من سيطرة اليهود وهم الأعداء التقليديون للإسلام على مفاتيح علم الاتصال.

❖ ثانياً: قعود العلماء المسلمين عن أداء دورهم في فرض الحقائق التي تخصهم على عالم المعرفة من خلال التنظير والتأطير وتثبيت الحقائق. وهذه النقطة لا بد من التركيز عليها لأنَّ السنوات القادمة ستشهد الكثير من إعمال معاول الهدم للثقافة الإسلامية ما لم يَتَصَدَّ عُلماءُ المسلمين لتأكيدِ حقيقتها والدفاعِ عنها وفرضها على عالم الواقع من خلال التجربة العملية والتنظير الفكري.

❖ ثالثاً: زُهدُ أمةِ المسلمين في قنواتِ الاتصالِ الحديثة والنفور عن الخوضِ في مُعتركاتها الشائكة بدعوى أنها تدخلُ في إطار المُحرمات.

وتأكيداً لهذه الأطروحة نستطيعُ أن نجزمَ أنَّ المسلمين قد وقفوا موقف المتفرج لسنواتٍ عديدة تجاه أجهزة الاتصال رغم أنها قد

أصبحت الوسيلة الأخطر في العالم لخلق التغيير وبسط المفاهيم بغض النظر عن حقيقتها أو واقعيتها. ورغم شعور المسلمين بهذه الخطورة ومحاولة بعضهم للتصدي لها إلا أنَّ معظم هذه المحاولات قد باءت بالفشل لأنها لم تكن بالفعالية المطلوبة، ولا بالقدر الكافي في معظم الأحيان. وذلك لقصور الأدوات التي استخدموها في محاربة الظاهرة الإعلامية بصورةٍ عامة. حيثُ ركنَ بَعضُهم إلى تحريم السماعِ للراديو وتحريم مشاهدة التلفزيون والسينما[4].

وكان الأجدى أن يتعاملوا مع هذه الوسائل بالأسلوب الذي تستحقه من حيث المشاركة، وفرض بدائل للمحتويات، وملء الفراغ، ووضع الأسس الحقيقية لفكرة التأثير والتأثر التي تبناها علماءُ الاتصال. وذلك لأنَّ الإسلام هو الدينُ الأغنى إذا ما طرحنا مادته بالشكل المقبول لدى المتلقين والقائمين بأمر الاتصال.

وفي الوقت الذي حارب فيه علماء المسلمين وقادتهم السياسيون قنوات الاتصال العالمية بدعوى كُفرانيتها، وأنها رِجْسٌ من عَمَلٍ الشيطان، دأب الغربيون –ومعظمهم أعداءٌ للإسلام– على الاستفادة القُصوى من هذه القنوات. كما عملوا على تطويرها وجعلها أكثر فاعليةً وتأثيراً على البشرية. وطوال الفترة التي قضوها في هذا

---

[4] محاضير محمد، (1996م)، الإسلام الذي أُسيء فهمه، ترجمة د. عوض إبراهيم عوض، المركز العربي الأفريقي سنديرن برهد، كوالالمبور، صفحة 71.

التخطيط والتنظير لم يضع المسلمون أُسساً منهجية أو برامجَ علمية تدحضُ ما يقولونه عن الإسلام أو تؤكدُ حاكميته في الأرض. كما أنهم لم يخلقوا قنواتٍ تُضارع هذه القنوات الغربية أو تكونَ بديلاً لها يملأُ الفراغَ لدى المتلقين الذين تأثروا وتفاعلوا معها.

وفي نفس الوقت لم يسكت علماءُ المسلمين عن انتقاد هذه القنوات وصبِّ جامِّ غضبهم على مَنْ صنعوها ومَنْ زودوها بالبرامج ومَنْ طوروها حتى أصبحت كالماء والهواء لدى معظم بني الإنسان في شتى بقاع العالم، وبينهم هؤلاء المسلمون بالطبع.

ولما لم يجد العالم ذلك البديل لجأ إلى وسائل الاتصال الغربية وتشرب بما فيها على أنه العطاء الأوحد المطروح في الساحة. وقد خلقَ هذا الواقع شكلاً مِنْ الحياد في نفوس المتلقين تجاه الثقافة الغربية التي بَدَتْ مَقبولةً إلى حدٍ كبير في نهايةِ المطاف بسبب كثرة العرض وتكرار معطياتها على المتلقين.

وتطور الأمرُ أكثر من ذلك عندما أصبحت هذه الثقافة هي الغالبة على البشرية. مما جعلها مقبولةً ومُفَضَلة في كثيرٍ من الأحيان حتى لدى الذين حاربوها وأرادوا القضاء عليها بوسائل لم يُحسنوا استخدامها. وفي النهاية اتسع الخَرْقُ على الراقِعْ كما يقولُ المثلُ العربي، وأصبح من الصعبِ إن لم يكن من المستحيلِ احتواءُ آثار هذه الثقافة التي فرضتها وسائل الاتصال. كما أصبح من الصعب

إقناعُ العالم بمعطيات الثقافة الإسلامية التي ظهرت بأساليب أقلَّ تحفيزاً للمتلقين لا لقصورها وإنما لقصور القنوات وأساليبِ العرض التي قُدمت بها، وهذا هو بيتُ القصيد. وكان الأجدى بالكُتاب المسلمين الذين تعرضوا لوسائل الاتصال أن يطرحوا هذا الأمر ولو من باب السبق التاريخي أو التذكرة، ولكنهم أغفلوه شأنهم شأن الكُتَّاب الغربيين. ومن أمثلة ذلك ما طرحه الدكتور يوسف محي الدين أبو هلالة في كتابه **(الإعلام في ديار الإسلام)**.

حيثُ تعرَّض في هذا الكتاب الهام لهوية الإعلام في ديار الإسلام، ثم عرج مباشرةً للحديث عن بداية ظهور الصحافة في العالم الإسلامي، ثم الإذاعة فالسينما والتلفزيون ووكالات الأنباء والفن والمسرح والكتاب. واختتم دراسته بالحديث عن أسباب الهجوم الخفي على الإسلام وإنكار السُنة النبوية والتشكيك فيها. إلا أنه لم يُشِرْ من قريب أو من بعيد إلى المنبر كأول وسيلة اتصالٍ جماهيرية عرفها المسلمون في دِيارهم قاطبةً ونقلوها إلى كل الأمصار التي دانت بالإسلام ومنها إمبراطورية الفرس وإمبراطورية الروم ثم البلاد الأوربية عن طريق الأندلس.

وكان من باب أولى ذكر المنبر على الأقل عندما ذكر الكاتب في مقدمته بصفحة 8 أنَّ في إعلامنا المعاصر فتنةً فاضحة وجاذبيةً مردية تتعرض خلالها الشعوب الإسلامية للمسخ المُشين

الذي يُفقدها شخصيتها ويطعنها في كرامتها. ومردُّ حثّنا على ذكر المنبر في هذا المقام أنه قد لعب دوراً تاريخياً هاماً في دَرْءِ الفِتَنْ وإعادة الأمور إلى نصابها عندما كشف جوانبها المزرية التي طعنت الأمة الإسلامية في المَقَاتِلْ[5].

وكان من أسباب تهميش دور المنبر أيضاً في مراحل التنظير أنَّ الشرط الأساسي لتعريف وسائل الاتصال الجماهيري هو أنها تحتاجُ إلى قناة. وقد تَمَّ تعريفُ القناة بأنها الوسيطُ الذي ينقل الرسالة من المرسل إلى المستقبل وفقاً لنموذج الاتصال المبسط الذي ينقسم إلى ثمانيةِ عناصر أساسية هي: **(المرسل، المتلقي، الرسالة، القناة، التشفير، حل الرموز، التغذية الراجعة، والتشويش)**[6].

كما استُبعدَ المنبرُ أيضاً في مرحلة تقسيم القنواتِ ذاتها عندما اعتمدت دوائر الاتصال العلمية الوسائل الجماهيرية المتعارف عليها وهي: **(الكتاب، والصحيفة، والمجلة، والتسجيل، والسينما، والراديو، والتلفاز)**. حيثُ وقفَ جميعُ المنظرين عند هذا التقسيم. ولعلنا نرى أنَّ هناك ثلاثةَ مبرراتٍ يمكن أن تكونَ السببَ في عدم اعتبار المنبر وسيلةَ اتصال جماهيرية، وهي:

---

[5] يوسف محي الدين أبو هلالة، (1408هـ)، الإعلام في ديار الإسلام، بداية ورسالة، دار العاصمة، الرياض، صفحة 75.

[6] Shirley Biagi, (1997), The Media Impact, Wadsworth Publishing Company, P. 33

◆ أولاً: إنَّ من خصائص وسائل الاتصال الجماهيرية أنها سريعة Rapid في أداء دورها للحد الذي ينتفي معها عنصرُ الزمان في وصول الرسالة كما في حالة الرسالة الإذاعية عبر الراديو أو التلفزيون والتي تصل في لحظة بثها من جهاز الإرسال.

ولكننا نقولُ لمن يركنون إلى هذا الادعاء إنَّ المنبر هو أول الوسائل الإعلامية على وجه الأرض التي اعتمدت هذا العُنصر (السرعة) بحكم وحدانية الزمان والمكان بالنسبة للمرسل والمتلقي. وكانت سخونة الأحداث وغزارتها في المجتمعات الإسلامية ظاهرةً وجليةً للعيان، مما جعل من التحليل والاستقراء واتخاذ القرار الفوري فيها أموراً لازمت خُطبةَ المنبر في كل العصور.

وبحكم مُلاحقة الخطبة للأحداث اليومية وإجلاء تفاصيلها والرد عليها فقد طالت القضايا جميعَ سكان الدولة بما فيهم المناوئين من العناصرِ التي ناصبت الدولة الإسلامية العداء.

وبهذه الخاصية تجاوز المنبر وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى بعنصرٍ إضافي هو بناء رسالته على ثلاثة عناصر بدلاً عن عنصرين، وهي الإعلام، والتعليم، والتذكرة. حيثُ تفرد المنبر بعنصر التذكرة بين وسائل الاتصال الأخرى بحكم أنَّ الإسلام قد قام على أساس وحدانية الخالق جلّ وعلا، واهتم بقضية بناء الإنسان على أساس القيم والحث على التطور والنماء وجلب المنفعة من خلال

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وفي نفس الوقت دعا الناس قاطبةً إلى ذكر الله سبحانه وتعالى إذا أرادوا جلب التوازن إلى أنفسهم، حيثُ جاء في محكمِ التنزيلِ: ﴿**ألا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾ [7]، وقال تعالى: ﴿**لعله يتذكر أو يخشى**﴾[8]، كما قال في سورة آلُ عمران: ﴿**يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم**﴾ [9].

كذلك جاء عنصر العبرة في الرسالة المنبرية، وهو العنصرُ المفقود في وسائل الاتصال الجماهيرية الأخرى ناقلاً للإنسانية قيماً أكبر من قيمة تلقي المعلومات من المصدر. صحيحٌ أنَّ بعضَ قنواتِ الاتصال قد استخدمت عنصر العبرةِ والتذكرةِ في بعض الأحيان ولكنه استخدامٌ عارِضٌ بدوافعَ فردية أملتها في معظم الأحيان طبيعةُ المتحدث الذي لا تدعمه بالضرورة فلسفةُ المؤسسة الاتصالية التي يتحدثُ من خلالها.

وأقربُ مثالٍ لذلك الحديثُ عن الحج الذي بثته شبكةُ السِي إنْ إنْ CNN إبَّانَ موسم الحج الأخير لعام 2000م والذي نقلت فيه مناسك الحج حيةً على الهواء من مكة المكرمة. والسبب في هذا أنَّ 95% من مؤسسات الاتصال العالمية الحاضرة، خصوصاً التي

---

[7] سورة الرعد، الآية 28 (الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر اللهِ تطمئنُ القلوب).

[8] سورة طه، الآية 44 (فقولاً له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى).

[9] سورة آلُ عمران، الآية 191 (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار).

تهيمن عليها القوى الغربية نشأت على قاعدة تحقيق الربحِ المادي ولا شيء سواه [10].

◆ ثانياً: إنَّ الإعلام الجماهيري لا بد له من وسيط Medium. وهذا الوسيط في المدلول الاتصالي هو القناة Channel. والقناةُ حسب تعريفها العلمي هي أي وسيلةٍ أو أداةٍ تقومُ بتوصيل الرسالة من المرسل إلى المتلقي. وعلى المستوى الدلالي اعتبر علماء الاتصال اللغة كوسيط ناقل للفكرة والمعلومة.

ومن ذلك كان التركيز المكثف على اللغة عندما بدأ علماء الاتصال دراسة ظاهرة الاتصال الإنساني طوال تطور حركة التأمل الفلسفي في الظواهر الاجتماعية.

وقد نشر الفيلسوف البريطاني جون لوك John Lock في أواخر القرن السابع عشر مقالةً حول الفهم الإنساني أشار فيها إلى أهمية اللغة كوسيط للاتصال الإنساني تتحقق من خلاله أهداف ربط المجتمع ووصل أركانه [11]. وهي في نطاق الاتصال الجماهيري تشمل جميع الأجهزة المرئية والمطبوعة والمسموعة. أما في حالة المنبر فإنَّ معالم القناة تتضح بشكلٍ أكبر من قنوات الاتصال الأخرى بحكمِ أنَّ

---

[10] Joseph R. Dominick, (1999), The Dynamics of Mass Communication, McGraw.

[11] قلندر، مرجع سابق، صفحة 39.

المرسل الذي غالباً ما يكون هو (الإمامُ) يُقدمُ رسالته إلى المتلقين وهم جمهور المصلين أو المستمعين للخطبة من فوق المنبر الذي يُعتبرُ وُجُودُهُ ضرورةً حتميةً في خُطبةِ الجمعة، لا يقدحُ في ذلك شكلُ أو حجمُ أو تصميمُ المنبر. ومادام هذا الوجودُ قد أصبح ضرورةً لازمة فإنه قد حقق وجود القناة.

والمنبر مثلُه مثلُ بقية وسائل الاتصال يتداخل فيه مفهوم التعريف بين القناة والمُرْسِلْ. وهذا التداخلُ يحدثُ في جميعِ وسائل الاتصال الجماهيرية المعروفة التي يصعب فيها التمييزُ بين القناة والمرسل والمتلقي في بعض الأحيان.

ويتضح هذا التداخل بشكلٍ جلي عندما نقوم بتحليل أي عملية اتصالية تستخدم وسائل الاتصال الجماهيرية إلى عناصرها الأساسية. فالوسيلة تكونُ قناةً ومَصدراً، وتكون مُرسِلاً في نفس الوقت. والقناة تُصبحُ مُتلقياًReceiver في كثيرٍ من الأحيان.

بل إنَّ المرسل نفسه يُصبحُ متلقياً عندما يتحول المتلقي إلى مُرْسِل في عملية الاتصال الثُنائي من خلال رجع الصدى Feedback في الرسالة المبثوثة عبر وسائل الاتصال. وندلل على تفسير هذه الظاهرة بمثالٍ بسيط نأخذه من جهاز الراديو الذي نفتحه لمتابعة البرامج، حيثُ يمكننا أن نطرح سؤالاً هل الراديو قناةٌ Channel أم مُستَقْبِل Receiver؟ وبقليلٍ من التأمل نكتشف أنه الإثنانِ معاً. وذلك

بأنَّ جهاز الراديو يُعتبر المُستقبِل الذي يلتقطُ الرسالة المبثوثة من محطة الإرسال الإذاعيRadio Station وهذا لا خلاف عليه بحكم أنَّ العديدَ من المراجع العلمية قد أشارت إليه ومنها كتاب وسائل الاتصال الجماهيرية للكاتب الأمريكي جون فيفيان John Vivian وكتاب المدخل إلى وسائل الاتصال الجماهيرية لجوزيف دومنيك Joseph Dominick وغيرها [12]. وهو في نفس الوقت قناةُ توصيل بالنسبة للمتلقي الحقيقي للرسالة وهو (الإنسان) الذي يستمعُ إلى هذا البرنامج.

ولا شكَّ أنَّ الإنسان وحده هو مناط هذه الرسالة الإذاعية وليس جهاز الترانزستور الموضوع على الطاولة، بدليل أنَّ التأثير المطلوب والذي يظهر من خلال تغيير السلوك، وفهم الرسالة، والانسجام مع البرامج أو رفضها، وردود الفعل الناتجة عن ذلك، تنبع كُلُّها من الإنسان وليسَ من الآلة التي تتحول إلى قناة وليس مُستَقْبِل في هذه الحالة.

إذن فالراديو هو قَناةٌ وهو مُستقبلٌ في نفس الوقت. بل ويمكن أن نذهبَ إلى أبعد من ذلك ونعتبر الراديو مَصْدَراً أيضاً. صحيح أنَّ المصدر هو محطة الإرسال الإذاعية أياً كانت، ولكنْ لا بُدَّ من توضيح أنَّ اعتبار المحطة الإذاعية كمصدر يقتضي النظر إليها من

---

[12] عوض إبراهيم عوض، (1999م)، المدخل إلى وسائل الاتصال الجماهيرية، دار يونيفيزيون للطباعة والنشر، كوالا لمبور، صفحة 96.

زوايا عناصرها المتكاملة، وهي التي تتداخل فيما بينها لتُعطي تعريف المحطة. وهذه العناصر هي الإنسانُ الذي يقرأُ المادة الإذاعية من داخل غرفة الإرسال، ثم مجموعة الأجهزة الكهربائية المتداخلة في بعضها مثل الأستديو، وجهاز المراقبة، وجهاز الإرسال، والهوائي المستخدم في نقل الذبذبات الصوتية إلى طبقة الآينوسفير، ثم جهاز الالتقاط الذي يُكمل هذه الدورة والذي بدونه لا يستقيمُ أمر الرسالة الإذاعية.

وهذه العناصر تُكملُ بعضها بعضاً، وغيابُ أيٍ واحدٍ منها يجعلها قاصرةً عن أداء دورها. إذنْ فجهازُ الراديو في هذه الحالة ليسَ مُستقبِلاً فقط وإنما هو عُنْصُرٌ مُكمِلٌ لجهاز الإرسال الذي يستهدفُ الإنسان. وبذلك تكون كل هذه الأدوات على اختلافها عناصر لعنصرٍ واحد هو المُرْسِل. وفي هذه الحالة يمكن اعتبارُ الهواء هو القناة الناقلة للرسالة المنقولة بهذه الكيفية.

كما يمكن اعتبارُ المايكروويف أو الموجات الأثيرية أو شبكة الإنترنت التي تمثل في مجموعها قنواتٍ تصل المرسل بالمستقبل. ولذلك يقولُ الإنسانُ: سمعت هذا النبأ من الراديو، كأنما الراديو الذي هو جهاز الاستقبال يُعتبرُ مصدرَ المعلومات لهذا المتلقي، وهذا صحيحٌ بلا شك. إذن فإنَّ قضية التداخل في هذه العناصر الثلاثة تجعلنا نفهم بسهولة إشكالية التمييز بين العناصر في وسائل الاتصال

الجماهيرية. وقد أصبح من الصعوبة وضعُ حدودٍ واضحة تميز مختلف أساليب الاتصال نظراً للتداخل بين منهج عمل كل منها. أي أن الفروق بين هذه الأساليب ليست فروقاً عمليةً واضحة، ولكنها فروقٌ فلسفية في أغلب الأحيان.

وإذا قيل إنَّ الاعلام عقلي والدعاية انفعالية في أسلوبها، نجد الداعية يستخدم أحياناً أسلوبَ الفكرِ المنطقي، كما أنَّ كثيراً من الأخبار والمعلومات التي تُعتبرُ عناصرَ إعلامية يعزوها التفكيرُ العقلي والتسلسلُ المنطقي، ويَطْغَى عليها أحياناً أُسلوبُ التهويل والضخامة المفتعلة [13]. وبالتالي فلا بد من قبول هذا التداخل في وسيلة المنبر الذي هووسيلةٌ اتصالية، موصوفةٌ بالزمان والمكان، ومُحددة بالاسم والموقع والحجم والشكل.

◆ ثالثاً: تتميز وسائل الاتصال الجماهيرية بأن رسالتها تصل إلى جميع المتلقين بالتساوي وفي وقت واحد simultaneously. وعند النظر إلى هذه الخاصية من زاوية الطبيعة الاتصالية للمنبر نجدُ أنَّ الرسالة الاتصالية التي يؤديها المنبر وهي (الخُطبة) تصل إلى كل المتلقين المقصودين بها في وقتٍ واحد مثلُها مثلُ بقية وسائل الاتصال الجماهيرية. وربما زعم البعضُ أنَّ هذه الحقيقة ليست ثابتة بحكم أنَّ

---

[13] محي الدين عبد الحليم، مرجع سابق، صفحة 82.

جمهورَ المتلقين لرسالة المنبر جمهورٌ محدودٌ بحوائط المسجد، ولكنَّ هذا الزعم ليسَ صحيحاً. حيثُ إنَّ المتلقين لرسالة المنبر هم كُلُّ الذين يلتقطون هذه الرسالة إما بطريقٍ مباشر أو عبرَ الوسائل المساعدة كمكبرات الصوت أو الراديو أو التلفزيون. ونخلص من كل هذا إلى أنَّ المنبر يشترك في جميع الخصائص مع وسائل الاتصال الجماهيرية التي تميزت بالسرعة، والمباشرة، والوصول لمختلف القطاعات المتلقية في وقتٍ واحد.

ومن ناحيةٍ ثانية فقد تأكد من خلال الملاحظة العادية واستقراء الواقعِ المُعاش في جميع البلاد الإسلامية والذي أكدته الدراسات المختلفة أنَّ جمهور المتلقين لرسالة المنبر قد تخطى حوائط المسجد، وأنه ظلَّ في تزايُدٍ مستمر يوماً بعد يوم حتى بين غير المسلمين.

وهذه الظاهرة قد أصبحت مُزعجةً لأعداء الإسلام خصوصاً في المساجد التي اشتُهرت بوجود أَئِمةٍ علماء خُطباء مؤثرين يلمسُون قضايا الساعة وينقلون الرسالة في قالبٍ علميٍ دقيقٍ ومُقنِع. وقد ضاقَتْ ساحاتُ المساجد في كثير من الدول بجمهورها خلال السنواتِ الأخيرة، مما اضطرها لتوسيع ساحاتها إلى أقصى حدٍ ممكن. واستخدمت جميعُها مكبرات الصوت وأجهزة العرض التلفزيوني Monitor حتى يتمكن الجمهور من متابعة ما يُبثُ من عَلَى المنبر.

كما لجأت العديدُ من المساجدِ الكُبرى إلى تسجيل هذه الخطب وتوزيعها على مختلف بقاع العالم عن طريق الموزعين مثلها مثل أشرطة الموسيقى والأفلام والبرامج التسجيلية التي يتلقاها الجمهور بكثيرٍ من اللهفة والاستمتاع. وأشهر مَنْ وصلت خُطبُهم عن طريق هذه الوسائل الشيخ **(عبد الحميد كشك)**، والشيخ **(محمد متولي الشعراوي)**، والشيخ **(عبد العزيز بن باز)**، والشيخ **(عبد الله السُديس)**، والشيخ **(علي الطنطاوي)**. وكلها خطبٌ قُدمت على المنابر والتقطتها الآذان حيةً على الهواء، ثم انتشرت في بلادٍ عديدة عبر التسجيلات بحكم تأثيرها القوي في جمهور المتلقين.

وإذا صحَّ الزعمُ بأنَّ جمهور المنبر محصورٌ بحوائطِ المسجد كما قد يكونُ في بعضِ المدن الصغيرةِ أو القُرى النائية فإننا نقول إنَّ هذا لا يَقْدَحُ في كَوْنِ المنبر وسيلةَ اتصالٍ جماهيرية بدليل أنَّ التلفزيون الذي يُسْتَخْدَمُ في إرسال البرامج التثقيفية والتعليمية وغيرِها يَبثُ في كثيرٍ من الأحيان برامِجَ لجمهورٍ مَحدُودٍ ومحصور في إطار قاعةٍ أو غرفةٍ صغيرة من خلال ما نُسميهِ الدوائرَ التلفزيونية المغلقة Closed Circuit في نِظام التعليم عن بُعْدْ [14]. وقد تبنت هذا النظام العديدُ من الجامعات المفتوحة والمؤسسات التعليمية الحديثة مثل معهد موش بتنزانيا. فهل غَيَّرَ هذا الاستخدام طبيعةَ التلفزيون وجعلهُ وسيلةً

[14] عوض إبراهيم عوض، (2001م)، لغة الإذاعة، دار النشر جامعة الخرطوم، صفحة 49.

غيرَ جماهيرية؟ وإذا سلمنا جدلاً بأنَّ جمهور المنبر محدود بالمسلمين الذين يحضرون الخطبة، وأنَّ رسالته تقتصرُ على الحاضرين داخل المسجد وهو مكان عبادة للمسلمين دون سواهم فإننا نقول إنَّ هذا الاقتصار لا يؤثر في اعتبار المنبر وسيلة إعلامٍ جماهيريةً.

والدليل على ذلك أنَّ كثيراً من وسائل الاتصال الجماهيرية ظلت تستهدف جمهوراً معيناً ومُحدداً بذاته. فجمهور المجلةِ محدودٌ في معظم الأحيان بحكم أن أهم خصائص المجلة التي تميزها عن الصحيفة أنها تهدف إلى خدمة جمهور محدد، وتحملُ رسالةً متخصصة لهذا القطاع المحدد من الجمهور [15].

وهي في كل الأحوال لا تخدم مُطلق الجمهور ولا تستهدفه بالخدمة حتى ولو تطوع هذا الجمهور وأصبح من زمرة قُرَّاء المجلة. ولذلك نجد مجلاتٍ مختصة بالمرأة ولا تستهدف غيرها من أفراد المجتمع. كما نجدُ مجلةً للطفل، وأخرى للرياضيين، وأخرى للمهتمين بشئون الاقتصاد، أو الكومبيوتر، أو المسرح وهكذا.

ورغم أنَّ هناك العديد من الأفراد يقرءون كل ما يقع تحت أيديهم إلا أنَّ هذه المجلات قطعاً لم تستهدفهم ولم تصدر من أجلهم. وكذلك الكتاب الذي قد يستهدفُ العاملين بإحدى الكنائس أو الأديرة أو المؤسسات المختلفة. لا يمكن لأحدٍ أن يدعي أنَّ قراءته قد

[15] Joseph R. Dominick, (1999), ibid, P. 47.

انحصرت بين رواد هذه الكنيسة أو تلك، أو العاملين بهذه المؤسسة، أو حتى بين أبناء الديانةِ المسيحية. وإنما من حق الجميع أن يَطَّلِعوا على مُحتوياتِه ما دام وسيلةً للاتصال مطروحةً بين أرفُفِ المكتبات ومتاحة لكل من يريد أن يشتري أو يتصفح.

وحتى المصحف أو الإنجيل أو التوراة إنما كتبها أتباعُ هذه الديانات. ولكنَّ البشرية بأجمعها اطَّلعت على هذه الكتب المقدسة وتعاملت معها كُلٌ من زاويته وبالشكل الذي يُريده. وشبيهٌ بذلك برامج الإذاعات المختلفة والتلفزيونات وصفحات الإنترنت وغيرها من المواد الإعلامية المتوفرة للجميع.

ولذلك فإنَّ المنبر سيظل وسيلةً للاتصال الجماهيري مثله مثل أي برنامجٍ إعلامي أو كتابٍ مفتوح حتى وإن كان هدفُهُ دينياً أو دعائياً لفكرة أو لعقيدةٍ بعينها أو لمنهج سياسي ما دام هذا المنهج مطروحاً لكل بني الإنسان وليس قاصراً على أحد.

إشكالية التكرار والنقل الشفاهي

ونتحولُ الآن إلى قضيةٍ أخرى صاحبت الحديثَ عن المنبر، وهي قضية التكرار في رسالة المنبر. وحتى يتواءمَ هذا الوصف مع طرحنا الذي نحنُ بصدده نقولُ إنَّ الخطبَ المنبريةَ اعتمدت في بعض المراحل المتقدمة خصوصاً أيام الدولة العباسية على تكرار الرسائل

التي ورد بعضها إلى الأئمة المحدثين وظلوا يكررونها لفتراتٍ طويلة، بعضهم بحسن نية وبعضهم عن جَهْلٍ بظروفِ هذه الخطب التي صيغت فيها. وساد بينهم شيءٌ من إحساس قوي فرض عليهم تأكيد قُدسية هذه النصوص.

وبالرغم عن اعتراضنا على مبدأ التكرار والرتابة في الخطب المنبرية إلا أننا لا نملك غير التسليم بأهمية التكرار في بعض المواضع ولبعض النقاط إذا كان القصدُ منها ترسيخ المفاهيم أو تأكيد المعنى.

وحتى علم الاتصال نفسه قد أقَرَّ أنَّ التكرار يعتبرُ من العوامل المهمة في عملية الإدراك والتأثير الحسي الذي يُسهم في بلورة الرسالة الاتصالية. حيثُ اعتبره علماءُ الاتصال واحداً من ستة عوامل ذات صلة بالمؤثر المدرك في العمليات الاتصالية. وهذه العوامل هي:

1/ كثافة المؤثر
2/ حجم المؤثر
3/ التضاد
4/ التكرار
5/ الحركة
6/ الحداثة والألفة.

وتنبع أهمية التكرار من دوره في تثبيت المعلومة بذهن المتلقي. ولذلك كلما تكرر الحدث أو استَمَرَّ لفترةٍ أطول كلما زادت احتمالات التقاطه وإدراكه [16]. ووفقاً لهذا المبدأ فإنَّ حفظ المعلومات أو النصوص إنما يتأتى كنتيجةٍ لتكرار هذه المعلومات وترديدها بشكل مستمر حتى يتمَّ الاستيثاقُ من رسوخها في ذهن الإنسان.

ولذلك السبب لجأت وسائل الاتصال المختلفة إلى ترديد أسماء المنتجات والسلع المراد الإعلان عنها، وذلك بغرض أنْ يؤدي هذا التكرار إلى رسوخ اسم السلعة لدى جمهور المتلقين ليذهبوا لشرائها من الأسواق.

والتكرار واحدٌ من أساليب المعرفة التي رسَّخَها الإسلامُ في أذهان البشرية، وهو ليسَ مرفوضاً في الثقافة الإسلامية إلا أنه مرفوضٌ وبشدة عند الغربيين الذين لم يألفوهُ ولم يُدركوا الحِكْمةَ من ورائِهِ.

وقد تكرر ذكر الأمم في القرآن الكريم، وتكرر وصف الثواب والعقاب، وتكررت العديدُ من الأحكام الشرعية، وتكرر سردُ القصصِ القرآنية كقصة إبراهيم عليه السلام، وقصة يوسف بن يعقوب مع امرأة العزيز، وقصة آل عمران وقصة مريم وعيسى عليهم السلام وغيرها. ولم يكن هذا التكرارُ بسبب الإفلاس أو النقص وإنما كان في جميعِ

---

[16] قلندر، مرجع سابق، صفحة 67.

المواقف مكملاً للوصف، أو مضيفاً أبعاداً أخرى للقضية المطروحة من خلال الآيات، أو لتركيز واقعةٍ من الوقائع أو إكمال المعنى. ولذلك نعتبرُ التكرار في الخطب المنبرية وسيلةً من وسائل ترسيخ المعرفة.

وليسَ المنبرُ في ذلك بدعاً من أساليب الأولين الذين حفظوا تراثهم وفنونهم وآدابهم في الأوعية المتاحة لهم وقتها، ثم نقلوا تراثهم للاحقين من أبنائهم عن طريق النقل الشفاهي بواسطة التكرار الذي أدى إلى حفظ المعلومات. ولولا أن الله سبحانه وتعالى قد وهَبَ الانسان فطرة حفظ المعلومات في الذهن والذاكرة لما تمكنت الأجيال اللاحقة من الإلمام بميراث الأجيال السابقة من معلوماتٍ ومعارف [17] ولانقطع حبلُ المعرفة من القرن الأول للبشرية.

وهذه النتيجة وصل إليها الغربيون قبل غيرهم، وأكدوها في العديد من مؤلفاتهم مثل كُوبَرْ Cooper الذي أوضح ذلك في مقاله بعنوان **(بلاغة أرسطو)**[18] ووليامز Williams الذي ظهر في حديثه عن ثورة الاتصال الذي نُشر في أُخريات عام 1983م.

ونحسبُ أنَّ انتقاد الغربيين للتكرار والحفظ قد نبع من زاويةٍ واحدةٍ فقط هي زاوية الحقد على معطيات الحضارة الإسلامية. وأقرب

---

[17] نفس المصدر، صفحة 88.

[18] Cooper, L. The Rhetoric of Aristotle, Quoted in Martin & Chaudhary, Comarative Media System New York: Longman.

دليلٍ على ذلك ما فعله المستعمرون البريطانيون في بداية القرن العشرين عندما استعمروا السودان حيثُ منعوا أبناءَ السودانيين من الحفظ، وقالوا لهم إنَّ الحفظ وسيلةُ الجُهلاء والأغبياء لأنه أسلوبٌ مُتخلف ويُعطلُ مَقدراتِ الإنسان الذهنية على التفكير.

وسرعانَ ما اكتشفَ العالمون ببواطنِ الأمور أنَّ الإنجليز كانوا يعلمونَ تماماً أنَّ هذا الكلام خِدْعَةٌ، وأنَّ الحفظ هو وسيلة الأذكياءِ وليسَ الأغبياء ولا يقدر عليه إلا النابغون من البشر، ولكنهم أرادوا أنْ يُشيعوا تلك الكراهية حتى يتوقف الأطفالُ والكبارُ عن حفظ القرآن الكريم الذي أحسَّ الإنجليز بخطورته على بقائهم كمستعمرين للبلاد. وأمرٌ آخر أخرج المنبر من إطار المحدودية بصحن المسجد، وهو عندما ننظر إلى المساجد التي فاض بها المصلون حتى خرجت صفوفهم إلى الشوارع والردهات القريبة والبعيدة من المسجد.

وأقربُ مثالٍ لذلك المسجد الحرام بمكة المكرمة، ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة، ومساجد إيران. حيثُ إنَّ مسجدَ الجمعة في المذهب الشيعي يكونُ واحداً في المدينة. مما اقتضى أنَّ يُصليَ جميعُ سكانِ المدينة خلف إمامٍ واحد، ويستمعون إلى خُطبةٍ واحدة.

وهذا الأمرُ جعل شوارع المدنِ الإيرانية تمتلئُ على سعتها بصفوف المصلين المتراصة في كل رُكنٍ من أركان المدينة. ونسبةً لصعوبة وصول صوتِ الإمامِ إليهم فقد ربطَ القائمون على أمر

المساجد جميع هذه الشوارع والطرقات والمحلات والقاعات بشبكةِ مُكبراتِ الصوت وكل وسائلِ الاتصال الإلكترونية التي جعلت من كلِ مدينةٍ إيرانيةٍ مَسجداً متمدداً في كل الزوايا والاتجاهات. وأصبح المتلقون لخطبة الجمعة ملايين البشر الذين يلتقطونها في لحظةٍ واحدة، فهل تُعتبرُ رسالةُ المِنْبَرِ هنا محدودةً بإطارِ المسجد؟

وقد يقولُ قائِلٌ إنَّ المنبر يؤدي طقساً دينياً واجباً على المصلين فقط، وهو بذلك يخرج من إطار وسائل الاتصال الجماهيرية التي تبثُ رسالتها دون محدودية الإطار العقدي أو الطقس العِبادي. ولكنَّ قرائنَ الأحوالِ تؤكدُ عدم صحة هذا الزعم، بدليل دور المنبر الذي اختلف عن أدوار الكنائس والأديرة على مر العصور.

وقد ارتبط المنبر بالمسجد وهو دار عبادةِ المسلمين ليُحققَ مُرادَ اللهِ في خلقه، حيثُ أرادَ بحاكميتِهِ أنْ يؤكدَ عبوديةَ الإنسان التي هي مناطُ التكليف والسمو للنفسِ البشرية. قال تعالى: ﴿**وما خلقتُ الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ [19]. وهذه الإرادة تُحققُ قضيتين أساسيتين هما العبودية والتعلم.

وإذا كانت العبودية تُحققُ كمالَ النفسِ البشرية في مراقيها المتصلة نحو الذاتِ الإلهية، فإنَّ التعلمَ هو وسيلتُها المُثلى لتحقيقِ

---

[19] سورة الذاريات، الآية 56 (وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون).

هذه المكانة. ﴿**قل هل يستوي الذينَ يعلمونَ والذينَ لا يعلمون**﴾[20].
كما يؤكد ارتباط تقوى الله والعبادة بالتعلم قوله تعالى: ﴿**واتقوا اللهَ ويُعلمكم الله**﴾[21]والحديث الشريف: ﴿**مَنْ عَمِلَ بما عَلِمَ أورثَهُ اللهُ عِلْمَ ما لم يَعلَمْ**﴾. كأنَّ العلمَ المُستقَى من المنبر يَقُودُ إلى لوازمَ يستصحبها عند تلقي الرسالة، وهي التطبيق الفوري للأحكام بعد تلقيها مباشرةً لارتباط الرسالة بالعبادةِ.

وإذا نظرنا إلى هذا الأمر من زاويةٍ أخرى نلاحظُ أنَّ خُطبة الجمعة رغمَ أنها رُكنٌ مكملٌ للصلاة، إلا أنها ليست طقساً مُقيداً بشكلٍ أو مضمونٍ مُحدَدْ. وهذا عنصرٌ مهم لسياقِ الطرحِ الذي نحنُ بصدده. حيثُ إنها إذا كانت مُقيدة بهذا الشكل لما صلحت أن تكون رسالةً إعلامية تُقدم للملأ، وإنما هي رسالةٌ مفتوحةٌ ومتجددة تتغير بتغير الزمانِ والمكان، وتتبدل حسب الأحوال والمواقف، وتتشكل بتشكلِ الظروف المحيطة بكلِ جماعةٍ إنسانية.

وهذا من أخص سماتٍ الرسالة الإعلامية التي يُرادُ منها التغيير السلوكي وازدياد الحصيلة المعرفية للمتلقين. ورسالة المنبر ليست مرتبطة بنظامٍ أو بفردٍ أو بلغةٍ أو أسلوبٍ معين. وإنما هي

---

[20] سورة الزُمَر، الآية 9 (أمن هو قانتٌ آناء الليل، ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمةَ ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب).

[21] سورة البقرة، الآية رقم 282، (وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يُضار كاتبٌ ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيءٍ عليم).

سلسلةٌ من المعلومات والموجهات والرسائل والدروس تصلُ إلى كل فرد حتى وإن لم يكن له وجودٌ داخلَ المسجد أو انخراطٌ في جماعة المصلين. وهذه النقطةُ مهمةٌ في التفريق بين الخطبة كطقسٍ مكملٍ للعبادة ودور المنبر كوسيلة اتصال تُبثُ من خلالها رسالة الإعلام الجماهيري. حيثُ درجت معظم الدول الإسلامية على إيصال خُطبة الجمعة لرعاياها والقاطنين في حدودها أو خارجها في أماكن سكنهم وتجمعاتهم عبرَ وسائل الاتصال الحديثة.

وهذا بدوره خلق إشكاليةً أخرى في أذهان الغربيين الذين اعتبروا استخدام وسائل اتصالٍ جماهيرية مُساعدة لنقل رسالة المنبر إلى المتلقين سبباً يحولُ دونَ اعتبارِ المنبر وسيلةَ اتصالٍ جماهيرية. كأنما أرادوا أن يقولوا إن وسيلةَ الاتصال الجماهيرية لا بُدَّ أن تقفَ بمفردها ولا تعتمد على وسيلةٍ أخرى في نقل رسالتها.

وهذا الادعاء باطلٌ جملةً وتفصيلاً ولا يقدحُ بأي حالٍ من الأحوال في اعتبار المنبر وسيلةَ اتصالٍ جماهيرية. والدليل على ذلك أنَّ كل وسائل الاتصال الجماهيرية ظلَّتْ تَحْمِلُ رسائلَ بعضِها البعض إما بشكلٍ مستديم أو بشكل دوري أو عندما تقتضي الظروف.

ومن ذلك مثلاً نجدُ مُحتوياتِ الصحف التي تُنقلُ يومياً للجمهور عبر الإذاعة من خلال ما يُسمى بأقوال الصحف. حيثُ أسهمت الإذاعة بذلك في حل مشكلة الأميين، ومشكلة فاقدي البصر،

ومشكلة الذين لا يستطيعون الحصول على الصحيفة إما لوجودهم خارجَ إطار المُدُنْ أو لأنهم لا يملكون ثمن الشراء. ثم إنَّ الراديو قد أسهم في نقل العديد من مواد التلفزيون مثل الأغاني والأحاديث والمعلومات والخُطب والألعاب الرياضية والاحتفالات وغيرها. مما أتاح للذين لا يملكون أجهزة تلفزيون أن يستمتعوا بقدرٍ كبير من مواد التلفزيون عبر الراديو رغماً عن اختلاف طبيعة التلقي بين الراديو والتلفزيون.

وفي نفس هذا الإطار ظلَّ العديدُ من مشاهدي التلفزيون في قارة أفريقيا خلال سبعينيات القرن العشرين يضعون جهاز راديو فوق جهاز التلفزيون لمتابعة صوت المادة التلفزيونية من خلال موجات ال FM ذات القدرة العالية والنقاء الجيد. وذلك بالرغم عن وجود سماعات الصوت في جهاز الاستقبال التلفزيوني.

والسببُ في ذلك هو اشتراك الراديو والتلفزيون على السواء في استخدام موجة ال FM قبل أن يتم التنازل عنها نهائياً بنهاية عام 1989م لمحطات الإذاعة في كل الدول الأفريقية[22]. أما بالنسبة لوسائل الاتصال المطبوعة فإنَّ كثيراً من الكتب تَمَّ نشرها في حلقات مُسلسلة على أعمدة الصحف والمجلات. وكثيرٌ من المجلات أعادت

---

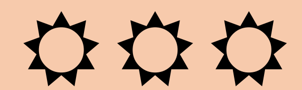
[22] أنظر عوض إبراهيم عوض، (2000م)، الإذاعة السودانية في نصف قرن، دار لخرطوم للطباعة والنشر، الخرطوم، صفحة 144.

نشر المقالات التي وردت بالصحف، خصوصاً تلك التي يكتبها محللون أو سياسيون كبار مثل محمد حسنين هيكل أو هنري كيسنجر وغيرهم. وفي السنوات الأخيرة حملت شبكةُ الإنترنت العالمية العديد من برامج الراديو والتلفزيون وصفحات الجرائد اليومية والمجلات والإصدارات الجديدة من الكتب. ولم يَعُد الإنسانُ محتاجاً لفتح الراديو أو التلفاز أو شراء الصحيفة والمجلة ما دام يجد كل ذلك في شبكة اتصالٍ جماهيريةٍ واحدة هي شبكة الإنترنت.

بل إنَّ الأسطوانات المضغوطة CDs قد حملت في السنوات الأخيرة مواد مختلفة من روايات وأشعار وأفلام سينمائية وأحاديث وغيرها مما كانت تنقله أجهزةُ التلفزيون والراديو والمجلات والكتب. فهل غيَّرَ هذا من اعتبار كُلِّ هذه القنوات وسائل اتصالٍ جماهيرية لأنها نُقلت بواسطة الإنترنت؟

بالطبعِ كلا، ولذلك فالمنبر ليسَ بِدعاً من هذه الوسائل، ويمكنه بث رسائله بطريقٍ مباشر أو عن طريق استخدامِ وسائل مُساعدة متى ما أراد أو وقتما اقتضت الضرورة. ونخلصُ من كل هذا إلى نُقطةٍ أساسية هي أنَّ قنوات الاتصال الجماهيرية تحملُ رسائلَ بعضِها البعض بشكلٍ مستديم ومعروف. ولا يؤثرُ ذلك في كون أيٍ منها وسيلة اتصال جماهيرية. والمنبر عندما نقلَ رسالته عبر وسائل اتصالٍ أخرى هي في الغالب الراديو والتلفزيون إنما سعى لأن تصلَ

رسالته لأكبرِ عددٍ من المتلقين وليس بغرض أن تُضيفَ هذه الوسائل الجماهيرية بُعداً آخر لرسالة المنبر. ولذلك اتسَّعت دائرة استقبال الرسائل المنبرية عبر الأقمارِ الصناعية دون أن تُشوشها الشركاتُ المسيطرة على هذه الأقمار. وما دُمنا بصدد التأطير لخصائص المنبر الاتصالية التي تجعل منه وسيلةً جماهيرية فإننا نقف في السطور القادمة على بداية نشأته والملابسات التي واكبت تطوره عبر السنوات لنرى كيف استطاع أن يلعب ذلك الدور الذي أَهَّلَهُ ليكونَ وسيلةَ اتصالٍ جماهيرية.



الفصل الثاني

❄❄❄❄❄

أسباب نشأة المنبر

الفصل الثاني

أسباب نشأة المنبر

❄❄❄❄❄

لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة المنورة مُهاجِراً إليها من مكة بعد استفحال العداء من كفار قريش نزل بقُباء حيث كان يسكن بنو عمرو بن عوف من الانصار. وكان أول عملٍ قام به هو بناء مسجد **(قُباء)** الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿**لمسجدٌ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ أحَقُ أنْ تقومَ فيه، فيه رِجالٌ يُحبونَ أن يتطهروا واللهُ يُحبُ المطهرين**﴾ [23].

وكان مسجد قُباء ذلك هو المسجد الأول في تاريخ الإسلام، وقد سُمي مسجد **(التقوى)** إشارةً للآية الكريمة السابقة والتي ذكرت أنه أُسس على التقوى، وأيضاً لدوره الريادي بين المساجد [24]. وقد سماه النبي ﷺ مَسْجِداً ليعني به المكان أو البيت الذي يُتخذ لاجتماع الناس للصلاة. ويُفسِرُ الزركشي السبب في اختيار كلمة مسجد لمكان

---

[23] سورة التوبة، الآية 108 (لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يومٍ أحق أن تقوم فيه، فيه رجالٌ يحبون أن يتطهروا واللهُ يحب المطَّهِّرين).

[24] محمود علي عبد الحليم، (بدون تاريخ)، المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي، دار المعارف المصرية، القاهرة، صفحات 50-79.

الصلاة فيقول: ((**لما كان السجود أشرفَ أفعالِ الصلاة لقرب العبد من ربه اشتُقَّ اسمُ المكانِ منه فقالوا مَسجِداً ولم يقولوا مَرْكعاً**))[25].

و(**المَسْجَدْ**) في اصطلاح العلماء بفتح الجيم هو موضع السجود أينما كان، أما بِكسرِ الجيم (**مَسْجِدْ**) فهو المكان المُعَيَّنْ الموقوف لأداء الصلاة.

وفي اصطلاح السالكين هو مظهرُ التجلي الجمالي، وسُميَ عَتَبَةَ الشيخ، كما سُميَ المُرْشِدْ [26] بحكم دوره الروحي والتعليمي في حياة الإنسان.

والمسجد في المفهوم الشرعي هو كُلُّ موضعٍ من الأرض لقول النبي ﷺ (**جُعِلَتْ ليَ الأرضُ مَسجِداً**) وذلك لحديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ حيث قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

«**أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى**

[25] محمد مختار علي (1402 هجرية)، دور المسجد في الإسلام، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي.

[26] محمد علي التهانوي، (1996م)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، الجزء الثاني: تحقيق علي دحروج، بيروت مكتبة لبنان ناشرون، صفحة 1535.

النَّاسِ عَامَّةً»[27]. ويقول القاضي عِياض: «**هذا من خصائص هذه الأُمة، لأنَّ مَنْ قَبلنا كانوا لا يُصلون إلا في موقعٍ يتيقنون طهارته. ونحنُ خُصِّصْنا بجواز الصلاة في جميعِ الأرض إلا ما تيقننا نجاستَهُ**». ومنذُ الوهلةِ الأولى اتخذ المسلمون المسجدَ مكاناً متعدد الأغراض، حيثُ يلتقون فيه لأداءِ الصلوات الخمس، ويتدارسون القرآن، ويذكرون الله، وينظرون في القضايا التي تنشبُ بينهم، ويتشاورون في أمور الدين والدنيا، ويتعلمون فيه أصول القراءةِ والكتابة وغيرها من العلوم. مما جعلَ منه مؤسسةً متكاملة، ومظهراً للوحدة والتكاتف والنظرة نحو المستقبل.

وكان مسجد قُباء متواضعاً وبسيطاً من حيثُ الشكلُ ومادة البناء، حيثُ لم تكن أرضيتُه إلا فرشاً من الحصى، وسقفه من جريد النخل الذي غطى بعضاً منه وترك أغلبه مكشوفاً لضيقِ ذات اليد. وعندما بُني مسجدُ الرسول ﷺ كان منبره في أول الأمر مجرد ارتفاعةٍ في الأرض إلى جانب مَوْضِعِ المِحْراب.

وبعد ذلك صُنِعَ له منبرٌ خشبي اختلفَ الرواةُ في تاريخه. فمنهم من قال إنه كان في سنة 6 للهجرة، ومنهم من قال إنه أُقيمَ في سنة 7 أو سنة 9 هجرية. ولكن رغم اختلافهم في التاريخ إلا أنَّ الرواةَ لم يختلفوا في الكيفية التي تمَّ بها إنشاء أول منبر. وهي أنَّ النبي ﷺ

---

[27] أخرجه مسلم عن حديث محمد بن سنان عن عن جَابِرِ بن عَبْدِ اللَّهِ رضي اللهُ عنهم.

وبعد فترةٍ وجيزة من إقامة ذلك المسجد دعا لإقامةِ مِنبرٍ فيه. ويتضحُ ذلك من حديث يحيى بْنِ يَحْيَى حينَ قال: أَخْبَرَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ نَفَراً جَاءُوا إِلَى سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَدْ تَمَارَوْا فِى الْمِنْبَرِ فَقَالَ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّى لأَعْرِفُ مِنْ أَيِّ عُودٍ هُوَ وَمَنْ عَمِلَهُ، وَرَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَوَّلَ يَوْمٍ جَلَسَ عَلَيْهِ –قَالَ– فَقُلْتُ لَهُ يَا أَبَا عَبَّاسٍ فَحَدِّثْنَا، قَالَ: أَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِلَى امْرَأَةٍ قَالَ أَبُو حَازِمٍ إِنَّهُ لَيُسَمِّيهَا يَوْمَئِذٍ «**انْظُرِي غُلاَمَكِ النَّجَّارَ يَعْمَلْ لِي أَعْوَاداً أُكَلِّمُ النَّاسَ عَلَيْهَا**». فَعَمِلَ هَذِهِ الثَّلاَثَ دَرَجَاتٍ ثُمَّ أَمَرَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَوُضِعَتْ هَذَا الْمَوْضِعَ، فَهْيَ مِنْ طَرْفَاءِ الْغَابَةِ.

وواصلَ عبدُ العزيز حديثه قائلاً: وَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَامَ عَلَيْهِ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ وَرَاءَهُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، ثُمَّ رَفَعَ فَنَزَلَ الْقَهْقَرَى حَتَّى سَجَدَ في أَصْلِ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ عَادَ حَتَّى فَرَغَ مِنْ آخِرِ صَلاَتِهِ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إني صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي وَلِتَعَلَّمُوا صَلاَتِي**»[28].

ولا يُشترط في المنبر أن يكون صغيراً أو كبيراً في الحجم. ويبدو أنَّ رسول اللهﷺ قد تعامل مع منابر بأحجام مختلفة. ورغم أنَّ الفقهاء أو المؤرخين لم يُحددوا حجم منبر رسول الله ﷺ إلا أنَّ إشارة

---

[28] أخرجه البخاري ومسلم عن حديث يحيى بن يحيى رضي اللهُ عنهما.

الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ تؤكدُ أنَّ هناك منابر كبيرة بحكم إشارته لأحدها بالصغر حيثُ قال نقلاً عن أبِيهِ: كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم فَأَتَاهُ قَوْمٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ وَسَاقُوا الْحَدِيثَ بِقِصَّتِهِ وَفِيهِ فَصَلَّى الظُّهْرَ ثُمَّ صَعِدَ مِنْبَراً صَغِيراً فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: **أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِى كِتَابِهِ (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ)** الآيَةَ[29].

ولعلَّ هذه هي الإشارة الوحيدة التي وقفنا عليها عن حجم المنبر، ولكنْ يبدو أنه كان كبيراً في معظم الأحوال بحكم تخصيص هذا المنبر المشار إليه بالصِغَرْ. ويتضحُ مما سبق أن المنبر قد صُنِعَ أول أمره من أعواد الشجر. وهو الذي أشار إليه بعضُ السلف حينَ قالوا إنَّ العودَ قد حنَّ إلى النبي ﷺ عندما تركه وبنى منبراً للمسجد. وقد اعتُبرَ ذلك إحدى كراماته ﷺ. بعد ذلك ورد أنَّ مادة المنبر قد تغيرت من الخشب إلى الطين.

وقد أشار إلى ذلك يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ وَقُتَيْبَةُ وَابْنُ حُجْرٍ حيث قَالُوا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَخْرُجُ يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ فَيَبْدَأُ بِالصَّلاَةِ فَإِذَا صَلَّى صَلاَتَهُ وَسَلَّمَ قَامَ فَأَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ جُلُوسٌ فِى مُصَلاَّهُمْ، فَإِنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ بِبَعْثٍ ذَكَرَهُ

---

[29] أخرجه البخاري عن حديث عبيد الله بن عمر القواريري وأبي كامل ومحمد بن عبد الملك الأموي عن أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير عن المنذر بن جرير عن أبيه رضي اللهُ عنهم.

لِلنَّاسِ، أَوْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ بِغَيْرِ ذَلِكَ أَمَرَهُمْ بِهَا، وَكَانَ يَقُولُ: **(تَصَدَّقُوا تَصَدَّقُوا تَصَدَّقُوا)**. وَكَانَ أَكْثَرَ مَنْ يَتَصَدَّقُ النِّسَاءُ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ فَخَرَجْتُ مُخَاصِراً مَرْوَانَ حَتَّى أَتَيْنَا الْمُصَلَّى فَإِذَا كَثِيرُ بْنُ الصَّلْتِ قَدْ بَنَى مِنْبَراً مِنْ طِينٍ وَلَبِنٍ فَإِذَا مَرْوَانُ يُنَازِعُنِى يَدَهُ كَأَنَّهُ يَجُرُّنِي نَحْوَ الْمِنْبَرِ وَأَنَا أَجُرُّهُ نَحْوَ الصَّلاَةِ فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ مِنْهُ قُلْتُ أَيْنَ الاِبْتِدَاءُ بِالصَّلاَةِ؟ فَقَالَ لاَ يَا أَبَا سَعِيدٍ قَدْ تُرِكَ مَا تَعْلَمُ. قُلْتُ كَلاَّ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَأْتُونَ بِخَيْرٍ مِمَّا أَعْلَمُ، ثَلاَثَ مِرَاتٍ ثُمَّ انْصَرَفَ. وتحدثَ النبي ﷺ عن المنبر قائلاً: **{مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي}**[30].

وعنه قال سَعِيدُ بْنُ مَنْصُورٍ: حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عن أَبي حَازِمٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِقْسَمٍ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَحْكِي عن رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أنه قَالَ: **{يَأْخُذُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ سَماوَاتِهِ وَأَرَاضِيهِ بِيَدَيْهِ فَيَقُولُ أَنَا اللَّهُ –وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا– أَنَا الْمَلِكُ}** حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى الْمِنْبَرِ يَتَحَرَّكُ مِنْ أَسْفَلِ شَىْءٍ مِنْهُ حَتَّى إِنِّى لأَقُولُ أَسَاقِطٌ هُوَ بِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم!!

---

[30] أخرجه البخاري ومسلم عن حديث زهير بن حرب ومحمد بن المثنى الذين أخرجاه عن يحيى بن سعيد عن عبيد الله عن ابن نمير عن عبيد الله بن خُبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي هريرة رضي اللهُ عنهم.

من خلال كل هذا كانت قيمةُ المنبر عند المسلمين كبيرةً، وقد أصبح الارتباطُ به ارتباطاً عقدياً لأنه مكان القداسة الذي يفيء إليه الناسُ من كل مكان ليجدوا ومنبع العلم ومدعاة الخشوع. بل وهو صِنوٌ لصلاة الجمعة التي هي واجبٌ على كل مسلمٍ بالغ. وقد حذر النبي ﷺ عن الغفلة من هذا الواجب بما جاء في حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه حين قال: سَمِعَتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ عَلَى أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ: ﴿**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ**﴾[31].

سبب تسميته بالمنبر

جاء في بعض كتب التراث الإسلامي أنَّ تسميةَ المنبر قد جاءت من طبيعة تكوينه الذي أُقيم عليه، لأنَّ العربَ في الماضي كانت تقولُ مِنبراً لكل مكان مرتفع يعلو على مستوى سطح الأرض المنبسطة. حيثُ إنَّ العبارةَ قد أُخذت من الفعل الثلاثي نَبَرَ وهي تعني ارتَفَعَ. وهي كلمةٌ قِيلَ إنها دخلت اللغةَ العربية من اللغة الحبشية. حيثُ يستخدمُ الأحباش كلمة (وَنْبَرْ) للدلالة على الكُرسي[32]. وهي

---

[31] أخرجه مسلم عن حديث الْحَسَنُ بن علي الحلواني عن أبي توبة عن معاوية بن سلام عن أخيهِ يزيد بن سلام عن الحكم بن ميناء عن عبد الله بن عمر رضي اللهُ عنهم.

[32] خير الأسماء شافعي، (2000م)، دور المسجد في بناء الحضارة الإسلامية، دراسة غير منشورة، صفحة 7.

شبيهةٌ جداً بكلمة (بَمْبَرْ) التي يستخدمها السودانيون للدلالة على الكرسي القصير الذي يُنسج من الحبال المصنوعة من سعف النخيل. وقال ابنُ منظور: (كل شيءٍ رَفَعَ شيئاً فقد نبَرَهُ، والنَبْرُ هو المصدر)[33]. وقد أُخِذَ هذا المعنى للمنبر الذي هو مِرقاةُ الخطيب التي توضعُ في مقدمة المسجد قُرب المحراب ليصعد عليها المتحدث ويُقدمُ الخُطبةَ من فوقها. وهو دائماً على الجانب الأيمن للإمام وهو يستقبلُ القبلةَ.

السمات المميزة للمنبر

تميز المنبر بالعديد من السمات التي ميزته عن بقية وسائل الاتصال، وتتلخص هذه السمات في ثلاثة أشياء:

1/ ارتباط المنبر بالمسجد.
2/ وجود التغذية الراجعة.
3/ الدعوة للقيم الفاضلة وسمو الأخلاق.

وكان ارتباط المنبر بالمسجد هي أولى السمات التي جعلت منه وسيلة ذات خصوصية وقيمةٍ أكبر مما قد يتبادر عند الحديث

---

[33] أنظر ابن منظور، لسان العرب، باب نَبَرَ.

عن وسائل الاتصال. وذلك أن هذه الخاصية قد أثمرت عبر التاريخ في جعل المسجد نفسه مؤسسة تعليميةً وإعلاميةً ذات بُعدٍ خاص. وقد أشرنا آنفاً لهذا الدور إبان فترة النبوة وما واكبها من تطورات. ولكننا نود أن نشير إلى دور معاصر شهدت به عيونُ الأشهاد للمنبر والمسجد وهو دور **(الأزهر الشريف)** في مصر.

ولعل اختيارنا للأزهر دون بقية المساجد لم يكن إلا على سبيل المثال وليس الحصر أو القصر. حيث أصبح منبر الجامع الأزهر منارةً للعلم والإعلام منذُ أنْ فَكَّرَ **(يعقوب ابن كلسن)** في جعل الجامع الأزهر مَعهداً للدراسات المنظمة المستقرة.

وكان يعقوب بن كلسن قد استأذنَ الخليفةَ العزيز سنة 378 هجرية (988م) في أن يحول منبر الأزهر إلى مدرسة مستديمة وذلك بأن يُعيّنَ جماعةً من الفقهاء للقراءة والتدريس في داخله. وقد تم له ما أراد حيثُ عيَّن سبعةً وثلاثين أستاذاً وضعَ لهم العزيز رَواتِبَ شهرية، وأنشأ لهم دُوراً للسكن بجوار الأزهر حيثُ اعتُبِروا أولَ هيئةٍ علميةٍ رسمية عينت للتدريس بهذا المسجد الجامع [34].

ووصفَ أحدُ عُلماء الرومان هذا الدور العظيم والمتجدد للأزهر بقوله: «**إنَّ في مبادئ الإسلام وتعاليمه ما يبتغيه العالَمْ من**

---

[34] عبد العزيز محمد اللميم، (1991م)، رسالة المسجد في الإسلام، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت، صفحة 246.

إصلاحٍ في دينِهِ ودُنياه»[35]. ولم يتحدث هذا العالِمُ الغربي إلا عن الأزهر لأنه قد عايشَ تجربته بنفسه فوصفها هذا الوصف، ولكنه بالطبع يمكن أنْ يقول نفس الشيء أو أكثر منه عن بقية المساجد الجامعة في العالم إذا عايشها لاسيما التاريخية منها مثل جامع المستنصرية ببغداد، والجامع الأُموي في دِمشق، وجامع الزيتونة في المغرب، وجامع قُرطُبة في إسبانيا، والمسجد النبوي في المدينة المنورة، ومسجد أيا صوفيا أو مسجد السلطان أحمد في إسطمبول بتركيا وغيرها.

وقد ظلت كلُّ هذه المساجد مناراتٍ للعلم والإعلام. ومن خلالها تخطى المنبر دوره المتعارف عليه وانفتح على كل أشكال الخدمات الإعلامية والتعليمية ومنها الدروسُ العلمية، والخطب السياسية، والوصايا الفكرية، وطرح الأمور للنقاش وغيرها.

وقد اعتمدَ بعضُ القادة السياسيين على استخدام المنبر لمخاطبة شعوبهم، خصوصاً في البلاد التي يمثل فيها المسجد أداةً أقرب وأسهل للوصول إلى القطاعات المختلفة من جمهور الدولة.

وأدركَ التربويون أيضاً دور المنبر كوسيلةٍ ناجعة للوصول إلى المتعلمين، فصنعوا منه مؤسسةً يوميةً لبث المعلومات وتغيير

---

[35] الشيخ طوالبي، (1988م)، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت. صفحة 475.

المفاهيم الشائهة في أذهان الشباب. والكلُّ في ذلك قد تأسى بالنبي ﷺ عندما بدأ بنفسه بتحوير المنبر إلى وسيلة إعلامٍ عقدية وسياسية تهتم بكل شئون الدولة في أوقات السلم والحرب، وتطرحُ قضايا الدعوة والتصالح بين القبائل، وتبثُّ الأحكام الجديدة على رعايا الدولة سواءٌ كانوا مسلمين أو أهل ذمة.

كما أسهم في طرح النقاش وتداول الآراء في معظم الأمور التي اقتضت طرح الشورى بين المسلمين. ثم كانت سياسات الدولة، وتطور التشريع، وبث الأخبار الجديدة، وخلق الدعاية، والنفرة للقتال، والوصايا المتعلقة بمستقبل الأمة، وحث الناس على الفضيلة وترك الرذيلة، وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة التي أسهم المنبر في تحليلها والوصول فيها إلى قناعاتٍ راسخة من خلال الإعلام عنها وبثها بين المتلقين.

وقد نشأ المنبر على أساس استخدام التعاليم الإسلامية وأساليب التربية النبوية التي مارسها رسولُ اللهِ ﷺ وأمر بها المسلمين حتى يكون لهم شأنٌ مغايرٌ للنصارى واليهود في بناء حضارتهم على أسسٍ راسخة وقواعد مميزة. وقد لخص أحدُ الباحثين [36] هذه الأسس في النقاط التالية:

---

[36] عبد الله قاسم الوشلي، (1988م)، المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلقات العلمية، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، صفحة 29.

1/ مخاطبة الناس على قدر عقولهم.

2/ التدرج في التعليم بشُعبتيهِ الكمية والكيفية.

3/ رعاية الفروق الفردية والبيئية والنوعية.

4/ استخدام الوسائل المُعِينَة على التوضيح.

5/ تَخَيُّر أحسنِ الأساليبِ وأرفقِها بعقل المتلقي وقلبِه وسمعِه وبصرِه.

6/ استخدام الطريقة الاستنباطية لاستخراج الحقيقة العلمية المنشودة.

وبناءاً على ذلك فقد نشأ المنبر على أساسِ تهذيب السلوك وتحسين الأخلاق. وهو مِصداقٌ لحديث النبي ﷺ {**إنما بُعثتُ لأُتمم مكارم الأخلاق**}.

والسلوك والأخلاق هما الرُكنان الأساسيان لرسالة المنبر. ولا شك أنَّ مفهوم الأخلاق في الإسلام مفهومٌ مِحْوَرِي نشأ مع النفس البشرية. ولذلك جاءت مادة الأخلاق من مصدر الفعل الثلاثي خَلَقَ، كما ارتبطت بخَلْقِ الإنسان وعلاقته بالخالق جلَّ وعلا.

وهي في ذلك أعمقُ من مفهوم الأخلاق في الفلسفة الإغريقية التي نبعت من خلال تقسيم اليونانيين للعالم الفلسفي إلى ثلاثة أقسام وُضِعَتْ في نهايتها الأخلاق التي رمزوا لها بعبارة Ethos التي تحورت فيما بعد إلى Ethics [37]. وما يهمنا في هذا الربط هو تلازم فكرة

[37] Awad I Awad, (1999), Communication Law and Ethics, Univision, K.L.

الأخلاق منذ البداية مع التواصل والاتصال. فالبلاغة عند أرسطو تتمحور حول ركيزةٍ أساسية هي الاتصال Communication. وهي في تعريفه إنما تعني الوصول إلى كل السبل والوسائل المُفضية إلى الإقناع.

وأهم ما وصل إليه أرسطو في هذا السياق هو اعتقادُه بأنَّ الإمساك بناصية السياسة والأخلاق يعتمد على تحقيق الاتصال الناجح بقطاعات الجماهير المختلفة، أي امتلاك القدرة على الإقناع من خلال المنطق والحجة [38]، وهي الأدوات التي ركزنا عليها في اعتبار المنبر وسيلةً اتصالية.

وإذا عُدنا إلى مفهوم المدينة عند الإغريق نجدُ أنَّ الكلام والفكر هما العنصران الأساسيان للوجود الفاعل للفرد في المجتمع. ومع نمو المدينة بمفهومها الإغريقي نمت مكانةُ فن الكلام والخطابة. وازدهر المسرح والأدب وفقاً لذلك عندما ظهر الموقع القيادي للخطيب في مجتمعه.

وحتى السفسطائيين Sophists الذين برزوا في أخريات القرن الخامس قبل الميلاد اعتمدوا على فن الخطابة الذي أبرزوا من خلاله براعَتَهم في المعرفة، ومارسوا من خلاله كُل أشكالِ الاتصال بالعامة والخاصة من جمهور المدينة. وعندئذٍ اتجهوا نحو تعليم أبناء المدن

---

[38] المرجع السابق، صفحة 49.

أساسيات الكلام من منطق وقواعد وتصريف وأساليب استدلال وطرائق استنباط وغيرها من المعارف التي تاقَ الناسُ لمعرفتها لتنقلهم من ربقة العوام إلى مصاف العارفين. وأصبح المعلمون هم قادةُ الفكر السفسطائي وعلى رأسهم أنتيقون، وبروتاغوراس وجورجياس. وظهر تأثيرهم فيما بعد في التعاليم السياسية التي قلبت الموازين في المدن الإغريقية.

إذنْ فإنَّ الإطار الخطابي الذي قام على أساس الاتصال الشفاهي بين الناس كان ذا فعاليةٍ وبريقٍ لم يُدانيه بريق في المجتمعات التي واكبت أو سبقت اتخاذ المنبر وسيلةً للاتصال في المجتمع الإسلامي.

وعندما اتخذها الإسلام وسيلةً أسمى لنقل الرسالة الإعلامية والتعليمية والتربوية وجدت كثيراً من مقومات الرقي والقبول في البيئة الإسلامية التي بدأت تتمدد بمرور الأيام. وكان سبب ازدهارها أنَّ تلك الجماعات التي دخلت في الإسلام قد أُعجبت بها. وقد أشار إلى ذلك الإمام الشيخ محمد أبوزهرة عندما قال في كتابه عن الخطابة الذي أصدرته دار الفكر العربي:

«وَجَدَتِ الخطابةُ في البيئةِ الإسلاميةِ عواملَ رُقيٍ، وأسبابَ تقدمٍ ونمو، فقد كانت حياةُ العربي خِصبةً بالتقوى والإيثار وقُوةِ الروح؛ حيثُ أحسَّ بأنَّ مُلْكَ كِسْرَى يتزلزل تحت سيفه، وقيصر

ينكمش فراراً من قوته. وذلك للدين الذي تَوَرَّدَ على قلبه. فإنه هو الذي أوجد تلك القوة التي تُدكدكُ العروش، وتُزلزلُ القلوب، وتجعلُ من ساكن الصحراء حاكماً لفارس ومُلْكِ الرُومِ في الشرق))[39].

ولما كانت القيمةُ الحقيقية لرسالة المنبر تعتمدُ على إدراك ما يقوله الخطيب فإنَّ المنبر بذلك يؤكد ما توصل إليه علماء الاتصال من أنَّ الإدراك هو أهم العمليات الذهنية ذات الصلة بسلوك الاتصال. حيثُ تشتمل عمليةُ الإدراك على مجموعةِ عملياتٍ فرعية ذات صلة وثيقة بالعقل والنفس البشرية، وينتج عن تسلسلها إدراكُ الفرد للحدث أو المؤثر الذي وقع على أحد حواسه. والمراحل التي وضعها علماء الاتصال لإكمال عملية الإدراك هي:

1/ مجابهة المؤثر

2/ التسجيل

3/ التفسير

4/ الارتداد

5/ التصرف

6/ الآثار.

---

[39] أنظر محمد أبو زهرة، (1934م)، الخطابة أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، صفحات 15-38.

وعملية التصرف لا تكتمل إلا بما ينتج من رد فعل سلوكي، حيث يقوم الفرد بالتصرف حسبما يقتضيه تفسيرُه للمؤثر. ولذلك كان الخشوعُ الذي أمر اللهُ به عباده على لسان النبي ﷺ أثناء الخطبة خشوعاً مقصوداً لذاته، لأنه يحقق أدب التلقي المفضي إلى فتح قنوات التعلم وشحذ الذهن لتفسير الرسالة بشكلٍ أوضح.

وفضلاً عن هذا فإنَّ اتصال الرسالة المنبرية بإقامةِ الصلاةِ جعلَ منها رسالةً متفردة تستدعي التجردَ لتلقيها دون الوساوسِ التي تشغلُ بال المتلقين والتي لا تنجو منها وسائلُ الاتصال الأخرى، مما جعل هارولد لاسويل Harold Lasswell يجزمُ ويؤكد أنه لا توجد رسالة بلا تشويش[40].

وقد اجتهدَ علماءُ الاتصال وفقاً لزعم هارولد لاسويل لاستنباط أنجع الأساليب لجعل المتلقي يقظاً طوال ساعات البث الإعلامي لكي تُحقق الرسالةُ الاتصالية أهدافَها. ولذلك كان المنبر سابقاً لأدوات الاتصال الأخرى عندما أمر النبي ﷺ روادَ المساجد بالخشوع التام وعدم الانشغال بأي غرضٍ دنيوي أو أخروي غير متابعة الخطبة وقَدْحِ الذهن للتلقي.

ومن هنا سرى الإحساسُ بقدسية رسالة المنبر وكأنها عُنصرٌ من عناصر الصلاة، وهي كذلك دون أدنى ريب. حيثُ إنَّ التجرد

---

40 Marchal McCluhan, (1967), The Medium is the Message, New York, Pantam.

للتلقي الذي يحدث أثناء تقديم الخطبة المنبرية لا يحدث لأي وسيلةٍ من وسائل الاتصال الأخرى سواء كانت جماهيرية أو غير جماهيرسة، وذلك بحكم أنَّ الشارع قد اشترط التأدُب أثناءها وحرَّم التلفظَ بأبسط الكلمات حتى لا ينشغلَ الإنسانُ عنها ولا يشغل بقية السامعين.

وقد أشار الحديثُ الشريف إلى ذلك الأمر بشكلٍ واضح حيثُ قال أبو هُرَيْرَةَ رضي اللهُ عنه، قال رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: {**إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ أَنْصِتْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْتَ**}[41]، وزادَ في روايةٍ أخرى: **(ومِنْ لغا فلا جمعةَ له).**

وقال النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ: كُنْتُ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ رَجُلٌ مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أُسْقِيَ الْحَاجَّ. وَقَالَ آخَرُ مَا أُبَالِي أَنْ لاَ أَعْمَلَ عَمَلاً بَعْدَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ أَنْ أَعْمُرَ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ.

وَقَالَ آخَرُ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِمَّا قُلْتُمْ. فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ بنُ الخطابِ وَقَالَ: لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ عِنْدَ مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَلَكِنْ إِذَا صَلَّيْتُ الْجُمُعَةَ دَخَلْتُ فَاسْتَفْتَيْتُهُ فِيمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ آية التوبة: ﴿**أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ**

---

[41] أخرجه الشيخان من حديث ابن رمح عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنهم.

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وجاهد في سبيل الله، لا يستوون عند الله﴾[42] إلى آخر الآيَةَ [43]. ولم يقتصر تأدب الصحابة في سماع الخطبة على رواد المسجد بل تخطاه إلى المستمعين خارج المسجد. حيثُ كانوا يلتزمون بأدب التلقي والمتابعة عندما يستمعون للخطبة. وقد جاء على لسان أبي بَكْر بْنِ نَافِعٍ قولُهُ: حَدَّثَنَا أَفْلَحُ بْنُ سَعِيدٍ عن عَبْد اللَّهِ بْن رَافِعٍ قَالَ: كَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ تُحَدِّثُ أَنَّهَا سَمِعَتِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ وَهِىَ تَمْتَشِطُ ((**أَيُّهَا النَّاسُ**)). فَقَالَتْ لِمَاشِطَتِهَا كُفِّي رَأْسِي.

وإذا كان ذلك هو أدب المتلقِي Listener لرسالة المنبر فإنَّ أدبَ المُرْسِلْSender يُعتَبَرُ أكثرَ تهذيباً ودقةً حتى تتسق الرسالة مع المراد منها وتؤدي أغراضها. حيثُ لم يشترط الشارع فقط صحة الخطبة ودقتها واهتمامها بقضية الإنسان، وإنما فرض على المتحدث سلوكاً معيناً وهنداماً جميلاً يتسق مع مقام الرسالة.

وكان النبي ﷺ يلبسُ لها رداءاً خاصاً يليق بهيبتها وخصوصيتها كما جاء في حديث جَعْفَرَ بْنَ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ عَنْ أَبِيهِ حين قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى الْمِنْبَرِ

---

[42] سورة التوبة، الآية 19 (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عن الله، والله لا يهدي القوم الظالمين).

[43] رواهُ البخاري ومسلم عن حديث حسن بن علي الحلواني عن أبي توبة عن معاوية بن سلام عن يزيد بن سلام عن أبيه رضي اللهُ عنهم.

وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سَوْدَاءُ قَدْ أَرْخَى طَرَفَيْهَا بَيْنَ كَتِفَيْهِ[44]. وتحدثَ أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ عن حتمية الاعتدال والاستقامة والانضباط على المنبر على خلاف مواقع الخطابة العادية، فوصف خشوع الجوارح وعدم التلاعب بالأيدي أو الأقدام أو ما سواها وكَأنَّ الإنسانَ في حضرة الصلاة المكتوبة.

والنموذج الأرفعُ لهذا الأدب الجم على المنبر هو نموذج النبي ﷺ الذي وصفه إبنُ أبي شيبة حينما قال: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ عُمَارَةَ بْنِ رُؤَيْبَةَ قَالَ رَأَى بِشْرَ بْنَ مَرْوَانَ عَلَى الْمِنْبَرِ رَافِعاً يَدَيْهِ فَقَالَ قَبَّحَ اللَّهُ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَقُول بِيَدِهِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِإِصْبَعِهِ الْمُسَبِّحَةِ [45].

كما كان النبي ﷺ يحرص على تخصيص المنبر ببعض سور القرآن الكريم التي حفظها عنه الصحابةُ رضوانُ الله تعالى عليهم، وبدأوا يقلدونه فيها، وذلك مما جاء في حديث عمرة بنت عبد الرحمن عندما تحدثت عن سلوك النبي ﷺ عند صعود المنبر في أيام الجمعة، فقالت عن أُخْتٍ لها: أَخَذْتُ سورةَ (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) مِنْ فَمِ

---

[44] رواه أبو بكر بنُ أبي شيبة والحسن الحلواني عن أبي أُسامة عن مساور الوراق رضي اللهُ عنهم.

[45] أخرجه البخاري عن حديث ابن أبي شيبة عن عبد الله بن إدريس عن حصين عن عمارة بن رؤيبة عن بشر بن مروان رضي الله عنهم.

رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَقْرَأُ بِهَا عَلَى الْمِنْبَرِ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ [46]. ولعلَّ هذا التخصيص، والأدب السلوكي في تقديمِ خطبة المنبر، واجتهادُ المتلقي في تصفية ذهنه لتلقيها يؤكدُ مكانة المنبر في الإسلام، كما أنَّ هذا الطرح يَتقاربُ مع رؤية مدرسة علم النفس المعرفي للاتصال الذي تقومُ واحدةٌ من أهمِّ مُسلَّماتِهِ الأساسية على أنَّ الإنسان إنما يتلقى المعلومات الحسية ويستجيب لها اعتماداً على قيمة هذه المعلومات وقناعته بأهميتها.

ويتأتى ذلك من خلال مجموعةٍ من العمليات الذهنية الداخلية المساعدة في فهم المعلومات واستيعابها كالإدراك، والتخيل، والاتجاهات، والقيم، وتصفية الذهن للتلقي. ومن ذلك جاء أدب الإنصاتوالمتابعة كإحدى مقومات السلوك في التلقي عن المنبر لكي يتعلم الإنسان ذلك العلم الذي أكبره وكرَّمَهُ اللهُ سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[47]، ثم زاده تكريماً عندما حثَّ الإنسانَ على الاستزادةِ منه بقوله تعالى: ﴿**وقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾[48].

---

[46] أخرجه الشيخان من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي عن يحيى بن حسان عن سليمان بن بلال عن يحيى بن سعيد رضي الله عنهم.

[47] سورة المجادلة، الآية 11.

[48] سورة طه، الآية 114.

الرأي الرافض لإعلامية المنبر

لقد انتقد البعضُ المنبر بأنه وسيلةٌ غير مستديمة بحكم أنه يُستخدمُ في أوقاتٍ معينة محدودة بالزمان والمكان. ولذلك لا يمكن اعتباره وسيلة اتصالٍ جماهيرية. وفي هذا الإطار لا بدَّ من التأكيدِ على أنَّ وسائل الاتصال الجماهيرية ليست بالضرورة أن تكون ذات استمرارية أو ديمومة يومية حتى يتم وصفها بالجماهيرية.

وأقربُ مثالٍ على ذلك (المجلة) التي لا تَصدرُ إلا في أوقاتٍ مُتباعدة ومحددة بحكم أنها وسيلة دورية. وإذا أصبحت يوميةً فإنها تفقد أُولَى خصائِصِها التي وضعها لها علماء الاتصال كمطبوعة دورية.

وكذلك الكتاب لا يمكنُ أن يصدرَ بشكلٍ يومي. حيثُ تمرُ شهورٌ أو أعوامٌ دون صدور أي كتاب، ثم تصدرُ منه مجموعاتٌ مختلفة في أوقاتٍ مختلفة وبقاعٍ مختلفة من العالم. وقد لا تأتي الطبعاتُ اللاحقة لنفس الكتاب إلا بعد أعوامٍ وأعوام.

وكل هذا لا يقدح في كونه أو المجلة وسيلة اتصالٍ جماهيرية. ولذلك فالمنبر كوسيلة اتصال لا يُشترطُ فيه أنْ يكونَ خِدمةً يوميةً أو مستمرة كالراديو أو التلفزيون. ورغم هذا الأمر إلا أنَّ المنبر قد نال خاصية الديمومة والاستمرارية في كثيرٍ من الأحيان عندما أراد له بعضُ قادة المسلمين أن يكون كذلك في بعضِ الحِقَب.

صحيحٌ أن نظامَ نشأته الثابت بالنصوص الشرعية جعل منه وسيلةً إعلاميةً أسبوعيةً تَبُثُ مادتها في كل يومِ جمعة قُبَيْلَ صلاةِ الظهر. ولكنَّ هذا لا يمنع من استخدامه بشكلٍ يومي لتقديم الخطب والدروس الدينية أو العلمية أو الفكرية مثلما هو الحال في كثيرٍ من المساجد المنتشرة في أنحاء العالم. حيثُ إنَّ وظائف المسجد العديدة التي أشرنا إليها آنفاً لا تنقضي، ويمكن أن نُضيف إليها تحقيق الأمن والطمأنينة في المجتمع، والتي كلما اختلت هُرِعَ الناسُ للمسجد طالبين الأمنَ والأمان فيكونُ المنبرُ حاضراً لتقديمِ الحلول[49].

وكانت نتيجة هذا الدور الأمني والتثقيفي للمنبر طوالَ عصور الحضارة الإسلامية أنْ أفرزت جيلاً لا يزال معجزة العالم ومفخرته في كل مجالات العلوم الشرعية والكونية والإنسانية مثل يحيى بن الحارث الذماري، وحمزة بن حبيب الزيات، ومالك بن أنس، والبخاري، ومُسلم، وأبو داؤد، والنسائي، والترمزي، وابن ماجة، وابن جريح، والسدي، ومُقاتل، وابن جرير الطبري، وغيرهم من المفسرين والمعلمين والأطباء، والمهندسين[50]. وما تزال جامعاتُ العالم تعتبرُ عطاء هؤلاء النفر الذين تعلموا أبجدياتِ العلم من وسيلة المنبر ثَروةً عِلمية في

---

[49] علي عبد الحليم محمود، (1988م)، المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي، دار المعارف المصرية، القاهرة، صفحة 32.

[50] الوشلي، مرجع سابق، صفحة 68.

مختلف ميادين الحياة ومراجِعَ أساسية في العلوم والأبحاث والمخترعات. وإذا لم تكن هذه الجامعاتُ تُشير إلى دور المنبر في تخريج هؤلاء العلماء وكيف أنه صقل مواهبهم وشجعهم على تلقي العلم من المهد إلى اللحد وعودهم على الشجاعة الأدبية، فإننا نريدُ أن نشيرَ إلى هذا الدور ونعتمدَ عليه في تأكيدِ ما نحنُ بِصَدَدِهِ.

المنبر والاتصال الشفاهي

تُعتبرُ رسالةُ المنبر رسالةً شفاهية. وقد بدأت هكذا ثُم تطورت عبر العصور لتبرزَ في الشكل الكتابي بهدفِ حِفظ الخُطب بعد إلقائها. والبثُّ الشفهي لرسالة المنبر أمرٌ مهمٌ في سياق هذا الكتاب لأنه أثارَ قضيةً جدليةً أدلى فيها عددٌ من الاتصاليين بآرائهم عبر العصور.

ولتعميم الفائدة نأخذ رأياً واحداً من الآراء العديدة التي طُرحت في هذا المجال ونضع من خلاله موقف المنبر عبر التاريخ. حيثُ قال عُلماءُ الاتصال إنَّ للحفظ الشفهي عيوباً تتمثلُ في نقطتين أساسيتين هُما:

1/ إنَّ نقلَ المعلومات شفهياً يجعلُ المتلقين يقبلون بالكلامِ المنقول شفهياً باعتبارِه واقعاً وحقيقةً دون أن يمتلكوا القدرة على مناقضته أو

الشك في حقيقته، وذلك لأنَّ المتلقين لا يملكون مُقوماتِ التقويم كالقياس والمقارنة والمفاضلة[51].

2/ إنَّ غياب القُدرة على المقارنة والمفاضلة أدى إلى بروز المجتمعات الأُحادية Monolithic societies ذات الرأي الواحد، والتي لا مكان فيها لتعدد الآراء. وفي مثل هذه المجتمعات أصبحت التقاليد الموروثة والمعتقدات والقيم والآراء التي يتخذها الزعماء أمراً لا بد من اتباعِه، والالتزامِ الصارمِ به، والحرصِ على عدم الحيدةِ عنه[52].

وفي ردنا على هذينِ الادِّعائينِ نقول إنَّ لدينا تحفظاً على سياقِهما، ولكن رغم هذا التحفظ نؤكدُ أنَّ المنبر لا تنطبقُ عليه هذه العيوب المُدعاة، وذلك لأنَّ رسالتَه ليس المقصود بها ترسيخ فكرةٍ واحدة أو قضية مُحددة وإنما هي رسالةٌ متغيرة بتغير الزمان والمكان، ومتجددة بتجدد الأحداث.

كما أنها وعاءٌ تربويٌ إعلامي يعمل بشكلٍ مستمر على خلق التغيير الاجتماعي والسلوكي بما يُفضي إلى تبديلِ حالِ المجتمعِ كُلِّهِ إلى الأفضل. وفي ذلك فهو أشبه بمحطة الإرسال التلفزيوني التي لا

51 قلندر، مرجع سابق، صفحة 84.

52 نفس المرجع، صفحة 85.

تسعى إلى تلقين المعلومات وإنما تجتهد لخلق التأثير المطلوب في المتلقين بمواءمة الحديث مع رغبات المتلقين وتوظيف التعليق لتلبية حاجات الجماعات البشرية بمختلف ألوانها. ثم إنَّ المشافهة قد كانت وسيلةَ الاتصال الوحيدة التي عرفتها المجتمعات الأولى. ولكنها كانت وسيلة فعالة وذات تأثيرٍ كبير في المتلقي الذي قد لا يجد سواها للتواصل مع من حوله من الناس.

وكان الحفظ في الذاكرة الإنسانية هو الوسيلة المناسبة وفقاً لذلك لتخزين الإرث الثقافي ونقل المعارف والعلوم في المجتمعات القديمة التي ساد فيها ذلك الأسلوبُ المُمَيَّزُ للاتصال. وهي مجتمعاتٌ راقية بمقاييس عصرها، وقد حملت إلينا كل ما نتعامل به اليوم من فكر ونظرياتٍ وآراء قَلَّ أن يجود الزمانُ بمثلها.

ومن خلاله تولد مفهوم العُرْف وقيمته الرسالية في المجتمعات. حيث ساد الإحساس بأهمية الموروثات والعادات والتقاليد رغم أنها اعتمدت على سلوك المشافهة والتكرار ولم تعتمد على عنصر الكتابة. وأقرب مثالٍ على ذلك الدستور البريطاني الذي هو تكاملُ مَوروثاتٍ شفاهية غير مكتوبة.

وقد أصبحَ أمراً مُقدساً لدى الإنجليز الذين لم يعرفوا دستوراً مكتوباً طوال تاريخهم، وإنما اعتمدوا على أسلوب السوابق القضائية الذي هو ترسيخٌ لثقافةِ المشافهة. حيثُ توارثوه أباً عن جد ولم يرضوا

به بديلاً. وإذا تجاوزنا أساليب المشافهة المشار إليها فإننا لا بد أن نعترف بأنَّ مرحلة الاتصال الشفاهي قد تميزت بعدد من الخصائص الإيجابية ومنها:

 أولاً: كانت الكلمةُ الشفهية ذاتَ أثرٍ بليغ في جمهور المتلقين. حيث كان للحديث المباشر فعلُ السحر في إقناع الناس وكسب تعاطفهم وانحيازهم إلى جانب المتحدث.

 ثانياً: أفرزَ الاتصالُ الشفاهي أمراً في غاية الأهمية وهو القيادة الاجتماعية في المجتمعات القديمة. حيثُ تركزت هذه القيادة في أيدي الخطباء المفوهين الذين تميزوا بالفصاحة وطلاقة اللسان والذاكرة اللماحة وسُرعة البديهة.

ولم يكن ذلك الأمر وقفاً على خطباء المسلمين وإنما مارسه أيضاً قدماءُ الرومان وخطباءُ الإغريق الذين نالوا به مَكانةً مرموقةً في المجتمعات القديمة. حيثُ كانت البلاغةُ والفصاحةُ وانتقاء المفردات والمواضيع هي المتطلبات الرئيسية لمن يريدُ الزعامةَ والقيادةَ في مجتمعه.

وكل هذه أدواتٌ اتصاليةٌ لعبتْ دوراً في تركيز سِمَاتِ الاتصال الشفاهي القائم على قواعد الاتصال الثنائي ومن ثم لعبت

دوراً بقنوات الاتصال الجماهيري عندما وُظِّفَتْ من خلال الخُطب والقصائد والسَجع وغيرها من وسائل التعبير التي هي أدواتُ المنبر الرئيسية في حمل رسالته إلى جمهور المتلقين. ونسبةً لأنَّ المجتمعات الابتدائية قد كانت مجتمعاتٍ شفهية فقد قصرت المسافة الوجدانية بين أفراد المجتمع.

ونتج عن ذلك التقاربِ التفافُ كل أفراد المجتمع حول المركز الذي يمتلك المعلومات ويبتدر الاتصال بين الناس. ولذلك أصبحت الجماعةُ تحت ظل الاتصال الشفاهي شديدةَ التماسك والتقارب فيما بينها، وشديدةَ الولاءِ لبعضِها البعض. وهذا أمرٌ إيجابي ومطلوب بلا شك.

ولم ينتهِ دورُ العرض الشفاهي بنهاية المجتمعات الكلاسيكية، وإنما استمر مع البشرية إلى يومنا هذا، حيثُ يستخدمه جميعُ الأدباء والفنانين والقادة السياسيين. وما الحفلات الغنائية والعروض المسرحية والليالي الشعرية والندوات الثقافية التي تملأ المسارح والقاعات والساحات العامة اليوم إلا انعكاس لالتصاق الناس الشديد بالتلقي الشفاهي وتعودهم عليه ثم تأثُرِهِم القوي به.

وقد تعوَّد الزعماءُ والقادة السياسيون على الوصول إلى جماهيرهم في كل مكان بغرض الاتصال المباشر معهم للتخاطب والتفاكر في لقاءاتٍ مفتوحة. وأقرب دليلٍ على ذلك ما يفعله مُرَشحو

الرئاسة الأمريكيون في مواسم الانتخابات حيثُ يطوفون بجميع الولايات كجزءٍ من حملاتهم الانتخابية لا لشيء إلا لتأثير مثل هذه اللقاءات المباشرة على الناخبين وعلى كل من يستمع إليهم وجعلهم يتعاطفون مع الشخص المنتخب.

وما هذه اللقاءات إلا تقديمٌ لمعلوماتٍ شفاهية تُبثُ لأُذن المتلقي مباشرةً دون وسيط، ومنها يتلقى الزعماءُ ردود الفعل من الجمهور مباشرةً دون وسيط، وهذا هو ما فعله المنبر في تقديم رسالته عبر الدهور.

ومن الانتقادات التي وُجِّهَتْ لكون المنبر وسيلة جماهيرية أيضاً أنه وسيلةٌ لا تُرسل لجمهور غيرِ المسلمين. وهذا زعمٌ باطلٌ جملةً وتفصيلاً بدليل أنَّ خُطبةَ الجمعة وغيرها من خُطبِ المساجد ظلت مفتوحةً لجميع البشر بمجرد أن يُلقيها المتحدث. ولم يحدث لمسجدٍ أن حرمَ مستمعاً أو متلقياً من الإنصات لحديثِ الإمام أو متابعته سواءٌ كان هذا المستمع مسلماً أو غير ذلك.

وإذا كان غير المسلمين لا يأتون للمساجد عادةً فإنَّ الخطبةَ لم تَعُدْ قصراً على رواد المساجد وإنما وصلت إلى كل أصقاع الدنيا بعد أن تمَّ نقلُها بواسطة الأقمار الصناعية والفضائيات والإذاعات والتلفزيونات ووسائل التسجيل الحديثة وغيرها. وأصبحَ بمقدورِ أي إنسانٍ على وجه الأرض مهما كانت عقيدتُه أن يستمتعَ بخطبة

المسجد كما يستمتع بأي مادةٍ ترفيهية تُبثُ عبر الأثير. كما أنَّ في مقدور كل إنسانٍ أن يرد على هذه الخطبة بما يشاء وأن ينتقدها بأي شكلٍ من أشكال الانتقاد عبر القنواتِ العديدة المتاحة للاتصال. كما أنَّ الجميعَ سواسيةٌ في أن يتعلموا من خُطبة المسجد وأن يعتبروا بها متى ما وجدوا فيها ما يروقُ لهم أو يُغير مفاهيمهم نحو الأفضل. وهذا يُثلجُ صدر الخطيب ورواد المسجد بلا شك متى ما عرفوا أنَّ هناك أناساً يتجاوبون مع الخطبة من غير المسلمين.

بل إنَّ بعض الأئمة والعلماء المسلمين اهتموا بردود فعل النصارى واليهود والماركسيين أكثر من اهتمامهم بردود فعل المسلمين. وعلى سبيل المثال الإمام **(الباقلاني)** الذي ترك مسجده وذهب للنصارى في ديرهم عندما أرادوا أن يُجادلوه في خطبةٍ ألقاها على المنبر ومست عقيدتهم.

ثم الشيخ **(أبو اليزيد البسطامي)** الذي كان جُلُّ همِّهِ أن يسبر أغوارَ عقيدة النصارى ويُعلمهم حقيقة التوحيد، ثم بعد قرونٍ من ذلك خرج الشيخ **(أحمد ديدات)** من مسجده وتوجه لمناظرة القساوسة في عُقر دارهم بالولايات المتحدة وأوروبا مما أثرى حمية النقاش وجعل العالم كله ينتبه لعظمة الإسلام من خلال الحُجج والبراهين التي ساقها، والتي هزم فيها مناوئيه من النصارى شر هزيمة. ثم كانت محاورات الأستاذ الدكتور **(مصطفى محمود)** للأقباط الذين علقوا على

آرائه في وضع الأجنة وخلق القرآن الكريم ومسألة الثالوث المقدس والتي كان قد طرحها في مسجده بالقاهرة. ووَلَّدَ ذلك النقاشُ حلقاتٍ عديدة من البرامج التلفزيونية التي طرح فيها الدكتور مصطفى عدداً من الأمور الهامة.

وفي عام 1988م أوردت صحيفةُ **(المسلمون)** أنَّ عدداً من الأقباط قد أعلنوا إسلامهم أمام الشيخ **(محمد متولي الشعراوي)** بفضل ما سمعوه من خطبه المنبرية التي تركت فيهم أثراً بليغاً. ونفس الشيء أحدثته خطب الشيخ **(عبد الحميد كِشك)**، وخُطبُ الشيخ **(الحجيلان)** وغيرهم من أئمة المساجد المفوهين.

وبنفس القدر أعلن عددٌ من الشباب في الولايات المتحدة الأمريكية إسلامهم عندما تابعوا خُطب **(مالكولم إكس)** في الستينيات. وقد دخل بعضُهم في دين الإسلام من خلال ما سمعوه من الخطب المنبرية داخل السجون الأمريكية الخاصة والمسماة Maximum Security Jails عندما أُتيحت فيها الفرصُ لإقامة بعض المساجد وتعميرها بالصلوات. وقد حكى أحدُ العلماءِ للمؤلف[53] أنه قد ذهبَ إلى أحد هذه السجون في عام 1987م بغرض مقابلة بعضِ الأمريكيين

---

[53] هذا العالم هو الأستاذ الدكتور مدثر عبد الرحيم الطيب، أستاذ العلوم السياسية، ومدير جامعة أم درمان الإسلامية الأسبق، والذي كتب العديد من المؤلفات والبحوث عن الإسلام والأقليات المسلمة باللغتين العربية والإنجليزية.

الذين اهتدوا للإسلام داخلها. وقد قرَّرَ القيامَ بهذه الزيارةِ وفي بالِهِ قصةُ المناضل المسلم **(مالكولم إكس)** Malcolm X الذي اهتدى للإسلام داخلَ هذه السجون بعد أن كان مشرداً وعِربيداً وتاجراً للمخدرات، وذهبَ لزيارة السجن المقام في قلعةٍ حصينةٍ بين فيلادلفيا ونيويورك.

ووصف جُدران السجن بأنها شاهقةً وتُذكر بالمدن الأوربية في القرون الوسطى. وقد وقفَ خلفَ أبوابها الحديديةِ الضخمة عساكِرُ أقوياء لهم عضلاتٌ مفتولة وأجسادٌ ضخمة.

وفي داخل السجن كانت الزنازين قد امتدت على مَدِّ البصر، والناسُ في داخلها يطرقون الأبوابَ بشدة، ويتصايحون بأعلى أصواتهم بحكم الضغط النفسي الشديد الذي يعيشونه داخل السجن. ثم بعد ذلك المشهد المرعب قيل لهم انزلوا درجات السلم لكي تصلوا إلى المسجد الذي هو في باطن الأرض. ونزلوا فإذا بجوٍ يختلف غاية الاختلاف.

كان المسجد واسعاً، وجميلاً، وقد بُنِيَ على طرازٍ ممتاز وفُرشتْ أرضيتُهُ بأفخم السجاد. وفي داخله رأى أناساً في غاية الأدب والنظافة والأخلاق والتسامح والابتسام. كانوا يرتدون جلابيبهم الناصعةَ البياض وطواقيهم التي تُغطي معظم الرأس. وقد جلسوا في خشوعٍ شديد لتلاوة القرآن الكريم. لم يصدق الأستاذ أنه داخل سجنٍ

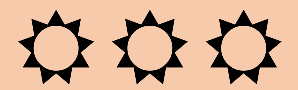
في أمريكا، وقيل له إنَّ هذا المكان قد كان مُستنقعاً للمياه الراكدة في الماضي، ولما طالب المسلمون بإقامة مسجدٍ لهم بالسجن قيلَ لهم: **«إذا أردتم أن تُقيموا مسجداً فعليكم أن تُجففوا هذا المستنقع ثم تقوموا ببناء ما شئتم»**.

وكان ذلك الأمرُ على سبيل التعجيز والتحدي، ولكنَّ الشباب المسلمين عملوا أياماً وليالي حتى جففوه وبنوا عليه هذا المسجد البديع في هندسته وفي دوره التعليمي والدعوي للسجناء.

وأثناء ذلك الحديث تقاطر المسلمون من أنحاء السجن المختلفة وبدأت خُطبة الجمعة التي أُقيمت بعدها الصلاة، ثمَّ أُعلن عن دخولِ عددٍ من المهتدين الجدد في الإسلام. وكان أكثر ما يلفتُ الانتباه هو إجادةُ بعضهم للغة العربية إجادةً تامة. والتفت الأستاذ المتحدث إلى أحدهم عندما لاحظَ طلاقته الفائقة وفصاحته الشديدة في التحدث باللغة العربية وسأله عن السر في ذلك فردَّ بقوله:

«إنني اتُهِمتُ في محاولة قتلِ أسرةٍ بأكملها، وحُكِمِ عليَّ بالسجن لمدة سبعين عاماً وكان عمري آنذاك ثماني عشرةَ سنة. وشعرتُ بأنني سأقضي العمر كله في هذا السجن، لأني لا أحسب أنني سأعيش أكثر من هذا. وأثناء وجودي بالسجن اهتديتُ للإسلام، فتعلمتُ الكثير من خلال الدروس والخطب التي سمعتها من الأئمة، ثم قررتُ بعد ذلك أن أتعلم اللغة العربية في هذا المكان

الطاهر وقد كان». مثلُ هذه الرواية ومثيلاتها تؤكد عظمة المسجد ودور المنبر في تهذيب النفس البشرية وجعلها تخوضُ غمار ما يبدو في عداد المستحيل في هذا الزمان الذي يؤمنُ بالمستحيل. وما هذه القصة إلا واحدة من عشرات بل مئات القصص التي لعب فيها المنبر دوراً يستدعي الوقوف عنده للتأمل والاعتبار.



الفصل الثالث

❄❄❄❄❄

جدلية المنبر

ووسائل الاتصال

الفصل الثالث

جدلية المنبر ووسائل الاتصال

❄❄❄❄❄

إنَّ الإعلام والتعليم يتفقان من حيثُ الهدف والغاية، حيثُ إنهما يسعيانِ دائماً إلى تغيير السلوك البشري للفرد من خلال ما يُعطيان من معلومات ومعارف تُوصل إلى هذه الغاية. وقد أشار إلى ذلك الأستاذ الدكتور محي الدين عبد الحليم في دراسته عن الإعلام الإسلامي، حيثُ قال: «**إنَّ التعليم طريق إلى تكييف الحياة ليعيش المتعلم عيشةً أفضل، ويستمتع الإنسان في المجتمع بحياةٍ أرغد. ولذلك فالتعليم والإعلام يقومان بالتقريب بين مختلف أفرادِ الشعب، وقد كانت أجهزة الإعلام قديماً وحديثاً هي المدرسة التي تواصل عمل المدرسة التقليدية فتقوم بتقريب الفروق بين الناس**»[54].

المنبر بين الاتصال والرسالة المدرسية

وحتى لا يظنن أحدٌ أنَّ إصرارنا على اعتبار المنبر ضمن وسائل الاتصال الجماهيرية قد يجعل من المدرسة أيضاً وسيلةَ اتصالٍ

---

[54] محي الدين عبد الحليم، (1984م)، الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، الطبعة الثانية، صفحة 80.

جماهيرية بحكم التشابه بين المسجد والمدرسة فإننا نقولُ إنَّ هناك فرقاً كبيراً بين الوسيلة الإعلامية والوسيلة التعليمية رغم أنَّ التعليم هو أحد وظائف الاتصال الأساسية التي قسمها العلماء إلى ستة وظائف رئيسية هي: **(الإعلام، والتعليم، والترفيه، والتنشئة الاجتماعية، والمراقبة، والإقناع).**

ومن البديهي أنَّ دور المدرسة هو التعليم الذي يتم بأسلوبٍ متعارفٍ عليه في جميعِ المجتمعات البشرية. حيثُ يعتمدُ على تقديم الدروس في القاعات المُخصصة لذلك وفقاً لجداول محددة تتبنى المناهج التربوية المحددة بمواصفاتٍ معلومة لدى التلاميذ والجهات التربوية.

ثم إنَّ المدرسة تُقدمُ دروسها لدارسين مُحددين بالاسم والحصر داخل الفصول التي يتم بعدها ما يُسمى بالتقويم الذي يتبع إحدى الوسائل المعروفة كالاختبارات والمسابقات والامتحانات النهائية وأساليب قياس القدرات والبحوث والسمنارات والعروض الحية لأفكار الدارسين Presentation وغيرها.

أما الوسيلة الإعلامية فهي تنزع إلى العمومية في بث الرسالة التي لا تتقيد بمنهجٍ أكاديمي محدد، ولا بدارسين يضمهم إطارُ الفصل الدراسي. ورغم أنَّ جمهور الوسيلة الإعلامية قد يكون معروفاً في بعضِ الأحيان إلا أنَّ ذلك لا يجعل منه جمهوراً محدداً بالأسماء أو

إطار الفصل الواحد كما في المؤسسات التعليمية. وإذا نظرنا إلى المنبر بعد هذا التفصيل نجدُ أنه لا يلجأ للأساليب التي تلجأ إليها فصولُ الدراسة، وإنما يَنْقُلُ المعلوماتِ من المصدر إلى المتلقي دون إجراء اختباراتٍ، أو مُسابقاتٍ، أو اعتماد مناهج محددة، أو مراقبة سلوك المتلقين، أو إقامة أي سمنارات. وتكون الرسالة هي العلاقة الأساسية فيه بين المصدر والمتلقي. وهذا هو ما تقوم به جميع وسائل الاتصال الجماهيرية.

إلا أنَّ المنبر يتفوق علي هذه الوسائل في أنَّ رجع الصدى فيه يكونُ آنياً ومتزامناً مع تقديم الرسالة، مما يجعله أقوى في توظيف هذا المردود في إكمال الرسالة بالشكل الذي يفهمه ويرتضيه المتلقي. ولذلك فهو يستفيدُ من التغذية الراجعة Feedback أكثر من بقية وسائل الاتصال الجماهيرية التي سعت جاهدةً لنيلِ مثل هذا الشرف بجعل المردود آنياً ومباشراً. وبالتالي فإنَّ المنبر قد جعل إثراء الرسالة الاتصالية من خلال معرفة رغبة المتلقي أو إدراكه للمضمون المراد توصيله أمراً حتمياً ومستديماً في كل الأوقات.

إبعادُ المنبر عند تقسيم وسائل الاتصال

عندما يركنُ علماءُ الاتصال والدارسون والمتعاملون مع أجهزة الإعلام الحديثة إلى المواصفات التقليدية والتقسيمات المتعارف عليها

في إطار علم الاتصال يجب أن يعترفوا بأنَّ هذه القوالب والمعطيات ليست مُنزهةً عن الخطأ، وأنها ليست القولَ النهائي في زمانٍ ظلَّ فيه العِلْمُ يتطور بشكلٍ أسرعَ من حركة التنظير والتأطير الأكاديمي. وعلى سبيل المثال نجدُ في جميعِ كتبِ الاتصال عبارةً وصلت إلى حدِّ الإجماع بأنَّ جهاز الهاتف Telephone يُعتبرُ وسيلةَ اتصالٍ ثُنائية وليس وسيلةَ اتصالٍ جماهيريةْ [55].

وظلت هذه المقولة تتكرر على مدارِ السنين كإحدى المُسلمات التي لا جدالَ فيها. ولكنْ في أحد المؤتمرات العلمية التي شارك فيها المؤلف بمعهد الفكر الإسلامي بماليزيا Institute of Islamic Understanding تحت عنوان **(مؤتمر الحوار العالمي عن مفهوم أجهزة الاتصال العالمية للإسلام)**، والذي انعقد في الفترة من 30 يونيو إلى 2 يوليو 2000م ثارَ جدلٌ طويل بين الكاتب وعددٍ من الأساتذة الأوربيين المهتمين بعلوم الاتصال بينهم مستر توبي ألدريج Mr. Toby Aldrich مدير وكالة أنباء يونايتد برس إنترناشيونال بالمملكة المتحدة والأستاذة شارلوت وايدمان Charlotte Widemann المحررة بمؤسسة داي ووخ الألمانية Die Woche, Germany.

وكان الحوارُ مستفيضاً عن تصنيف وسائل الاتصال وموقع الهاتف Telephone من هذا التصنيف هل هو وسيلةُ اتصال ثنائية أم

---

[55] شيرلي بياجي، مرجع سابق، صفحة 232.

وسيلةُ اتصالٍ جماهيرية؟! وكان مما طرحه الكاتب أنَّ وصف التلفون بالثنائية ظلَّ مقبولاً طوال الحقب التي أعقبت اختراعَهُ في عام 1837م على يد الأمريكي جراهام بيل Graham Bell وذلك لأنه قد ظلَّ جهازاً يربط شخصين بعيدين عن بعضهما يتحدثان عبره بشكلٍ مباشر. وهي مُحادثةٌ ثنائيةٌ تَنطبقُ عليها كُلُ مواصفاتِ الاتصال الثنائي التي عرَّفتها علومُ الاتصال واعتبرتها أفضلَ أشكالِ الاتصال الإنساني من حيثُ رجع الصدى المصاحب لبث الرسالة نفسها.

واستمرَّ التطورُ التقني ليجعل من الهاتف وسيلةً ميسورة تخطت عقبات الأسلاك لتصبح جهازاً لاسلكيا أو رقمياً في السنوات الأخيرة. وقد أدى بهذا الأسلوب مُهمته بشكلٍ أفضلَ بكثيرٍ مما كان في الماضي. ولكن هل ظلَّ الهاتف على ما هو عليه بعد هذه التطورات؟

بالطبع لا، حيثُ انتقل في السنوات الأخيرة من دوره التقليدي إلى دورٍ أكبر بكثير عندما أصبح هو الناقل الأساسي لعددٍ من الخدمات الإعلامية التي بدأت أولَ ما بدأت بنقل الإذاعات الخارجية من مواقع الأحداث إلى المستمعين دون المرور بمرحلة الأستديو.

ثم جاءت شبكةُ الإنترنت Internet العالمية التي جعلت من الهاتف أهم أدواتها على الإطلاق. حيثُ لا يمكن للإنسان أن يتصفح خدمات الإنترنت إلا إذا أوصل جهازه بالشبكة الداخلية Server التي

يتعامل معها مثل TmNet أو غيرها من الشبكات العديدة المنتشرة حول العالم عن طريق الهاتف. ويساعد على هذا الاتصال جهاز الموديم Modem المُدمج في جهاز الكومبيوتر والذي يقوم بتحويل الأصوات إلى أرقام والحروف إلى ذبذبات لِتَسْهُلَ عمليةُ انتقال المواد عبر الشبكة. وإذا انقطع هذا الخط التلفوني في أي لحظةٍ من اللحظات تعذر استقبال الإنترنت إلى درجة الاستحالة.

وإذا أدركنا أنَّ عدد المتصفحين لشبكة الإنترنت يُقدر بثلاثة ملايين وخمسمائة ألف شخص في اللحظة الواحدة [56] يمكن لأي عددٍ منهم أن ينخرط في شبكة حوارٍ مفتوح يتجادل فيها مع الآخرين بما يشاء لأدركنا أنَّ جهاز الهاتف قد تفوق على نفسه وأصبح أكبر من مجرد قناة اتصالٍ ثنائي.

ومن زاويةٍ أخرى أصبح جهاز الهاتف أهمَّ وسيلةٍ في نقل المؤتمرات الحديثة التي تُسمى بمؤتمرات الفيديو Video Conferences، حيث يشارك في هذه المؤتمرات عددٌ غير محدود من الشخصيات من مختلف بقاعِ العالم. وتقومُ بإدارة هذه المؤتمرات محطات التلفزيون والإذاعة المنتشرة في كل مكان.

---

[56] تقرير شبكة ياهو Yahoo عن الإنترنت لعام 2000م، والذي صدر في يوم 31 ديسمبر 2000م.

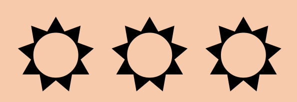
ويتبادل المشاركون في هذه المؤتمرات الحوار حول كل المواضيع المطروحة للنقاش. ويتداخلون بشكلٍ سهلٍ وميسور ليتم الرد عليهم وقتياً من خلال شبكة الحوار المتصلة بجميع أنحاء العالم. وليسَ أمامَ أي واحدٍ منهم غير جهاز التلفون.

ونفسُ هذا الأسلوب لجأت إليه برامج الإذاعات في معظم بقاع العالم لإدارة ما يُسمى ببرامج الاتصالات الهاتفية Call Inns، التي يقومُ فيها أحدُ الأشخاص بإدارةِ الحوار وتوزيع الفرص بين عشرات المشاركين من المستمعين الذين لا يربطهم أي رابط جغرافي سوى جهاز الهاتف وموجات الأثير.

وقد ذهب جهاز الهاتف إلى أبعد من ذلك عندما ظهرت في السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات والتسعينيات العديدُ من الحفلات الموسيقية التي اعتمدت على التلفون وحده كقناةٍ لنقل الاحتفالات حيةً على الهواء، وذلك مُقابِلَ مبلغٍ من المال يدفعه المشتركون للجهات المنظمة للاحتفال.

وقد مَكَّنَ هذا الأسلوب آلاف المستمعين من التقاط هذه الحفلات الموسيقية في نفس اللحظة التي تُقدمُ فيها على خشبةِ المسرح. فهل يمكن أن نُسمي الهاتف بعد كل هذا جهاز اتصالٍ ثنائي مثلما وصفته كتب الاتصال القديمة؟ قطعاً إنَّ في الأمر نظر. وسنظلُّ ندعو إلى تغيير هذا المفهوم القديم للهاتف جنباً إلى جنب مع

موقفنا من المنبر بحكم وجود أدلةٍ كثيرة غير التي سقناها في سياق هذا العرض.



الفصل الرابع

❄❄❄❄❄

بداية الخطابة قبل الإسلام

الفصل الرابع

بداية الخطابة قبل الإسلام

❄❄❄❄❄

درج علماء الاتصال والمهتمون بأمره على تقسيم وسائل الاتصال إلى قسمين رئيسيين هما الاتصال الإلكتروني Electronic Media والاتصال المكتوب Print Media. ويتفرع هذان القسمان ليشملا معظم أساليب الاتصال الذي يصل إلى المتلقي من خلال الراديو والتلفاز والتسجيل والكتاب والمجلة والصحيفة، ولكنهما لا يشملان جميعَ أنواع الاتصال.

ومن حيث الشكل التعبيري درج العلماء على تقسيمه إلى ثلاثة أقسام هي المقروء، والمسموع، والمُشاهَدْ. وواضح من هذا التقسيم أنه التزم بالتعريف الكلاسيكي لوسائل الاتصال الذي طرحه هارولد لاسويل Harold Laswell وولتر ليبمان Walter Lippman والذي استنبط منه دي فلير DeFluer وراكيش Rocheach لاحقاً إحدى مقومات عملية الاتصال الجماهيري التي اقتضت توافر أربع خصائص أساسية هي:

1/ أن تكون الرسالةُ سريعة Rapid،

2/ وأن تصل إلى كل المتلقين في وقتٍ واحد Simultaneous،

3/ وأن تصل عن طريق قناةٍ Medium،

4/ وأن تكون العمليةُ الاتصاليةُ ذات بُعدٍ دلالي Semantic Process.

ومن خلال هذا التعريف أدرج علماء الاتصال كل الأشكال المتعارف عليها بحكم توافر هذه السمات فيها، إلا أنهم أغفلوا شكلاً هاماً من أشكال الاتصال هو الذي قامت عليه الحضارة الإسلامية ذاتُ الجذور الراسخة والأبعاد المؤثرة في خارطة الفكر والسلوك الإنساني خلال خمسة عشر قرناً من الزمان وهو شكل **(الاتصال الخَطَابِي)** الذي عرفه العلماءُ المسلمون بفن **(الخَطابة)**.

ولذلك كان لزاماً علينا كمختصين في علوم الاتصال أن نلفتَ انتباه العالم إلى هذا الشكل الهام لتعريف الناس به كواحد من أهم الأساليب الإعلامية التي غيَّرت المفاهيم وغرست كثيراً من القيم التي دعا إليها علماء الاتصال بحكم أن الخطابة هي الشكلُ الوحيد بين أشكال الاتصال الذي توافرت له الأبعاد الأساسية الثلاثة لمفهوم العلاقة الإنسانية وهي البعد النفسي Psychological، والبعد الثقافي Cultural، والبعد الاجتماعي Sociological Process.

وباستقصائنا لدور الخُطب المنبرية وتطورها عبر التاريخ وجدنا أنها قد لعبت دوراً اتصالياً أساسياً وهاماً للغاية في دولة الإسلام

منذُ نشأتها وخلال عصورها المختلفة، رغم أنَّ الخطابة كفن قد عُرفت قبلَ قرونٍ طويلة من مجيء الإسلام. وهذا على عكس الدول الأخرى التي عَرَفَتْ فَنَّ الخطابة ومارسته بدون استخدامه إعلامياً بالحنكة التي فعلها المسلمون، وذلك لأسبابٍ تاريخية وفنية تعلقت بطبيعة الدين نفسه.

وهذه المفارقة في استنباط خصائص الخطابة واستخدامها إلى أقصى حد في تشكيل مفهوم الدولة وطرح البُعد الرسالي للإسلام كثقافة حضارية هي التي جعلتنا نزعم أنَّ الخطابة بشكلها الإسلامي **(وسيلة اتصال)** وليست **(وسيلة تعبيرٍ فنيةٍ)** فقط كما تصورها بَعضُ السابقين والمُحدثين من العلماء.

ولكن قبل الخوض في تفصيل هذا الأمر نود أن نشير إلى نقطةٍ مهمة لمسار هذا الحديث عن المنبر وهي أنَّ بعضَ العلماء قد اعتبروا الخطابة جزءاً من علم المنطق. وقد أشار إليها العلامة المعروف **(ابنُ سينا)** حين قال: «**إنَّ الحكماء قد أدخلوا الخطابة والشعر في أقسام المنطق لأنَّ المقصود من المنطق أن يُوصل إلى التصديق، فإن أوقع التصديق يقيناً فهو البرهان وإن أوقع ظناً أو محمولاً فهو الخطابة**» [57].

[57] المقصود بالمحمول على الصدق ما يقبله الإنسان لصدوره عمن عُرف بالصدق.

بعد ذلك دلف **(ابنُ سينا)** إلى قيمة الخطابة فأكد أنها صناعةٌ عظيمة النفع بحكمِ أنَّ الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن أفضل نفعاً وأعم على الناس من أضدادها، لأنَّ نوع الإنسان يعيش بالتشارك، ويحتاجُ إلى التعامل والتحاور، وهما يحتاجان إلى أحكام صادقة، وهذه الأحكام الصادقة تحتاج إلى أن تكون مقررة في النفوس، ممكنة في العقائد.

وإذا كان البرهان قليل الجدوى في حمل الجمهور على الحق فإنَّ الخطابة تستطيعُ أن تفعل ذلك [58]. ويبدو أنَّ هذا الرأي المقتضب للعلامة **(ابن سينا)** مهمٌ لما نحنُ بصدده من حيثُ الشكل الدلالي للخطابة، رغم أنَّه قد اكتفى بوصف النتائج المترتبة عليها أكثر من وصفه لطبيعتها أو توصيف أدوارها ذات الأبعاد المتعددة في ظل الدولة الإسلامية التي اتخذتها عُنصراً أساسياً من عناصر الاتصال الدائم بالجمهور.

ولهذا السبب انبرى نفرٌ من الكتابِ المسلمين لمحاولة بلورة هذه الأدوار مقروءةً مع إفرازات الجدل الفكري الذي ظَلَّلَ سَنواتِ القرنِ العشرين بظلالٍ من التشكيك في أحقية الخطابة أساساً للتوصيف كإحدى أدوات المعرفة.

---

[58] محمد أبو زهرة، مرجع سابق، صفحة 18.

وقد أفرز ذلك الجدل شيئاً من الصراع جعل حمية الدفاع عن التراث هي الغالبة في كتابات العديد من الباحثين. ولكننا نستطيعُ أن نُثمن إسهامات خمسةٍ من الكتاب المسلمين الذين حاولوا إجلاء هذا الأمر، رغم أن بعضهم قد أدخله في إشكاليةٍ أخرى وهي إشكالية التصنيف والترتيب ضمن العلوم المعرفية. ومن هؤلاء الكتاب **(الشيخ محمد أبو زهرة)**، والأستاذ **(محمد عبد الغني حسن)**، والأستاذ **(عبد الجليل عبده شلبي)**، والأستاذ **(علي محفوظ)**، والأستاذ **(أنيس المقدسي)**.

فقد انصبَّ معظم جُهدِ هؤلاء الكُتاب المُجَوِدين في إطار الطرحِ الأسلوبي للخطابة وأشكال استخدامها كإحدى فنون الثقافة الإسلامية. إلا أنهم جميعاً تجنبوا التركيز على بُعدها الاتصالي الذي هو أهم أبعادها على الإطلاق. وربما كان السبب هو عدمُ إدراكهم لهذا البُعد أو عدم اهتمامهم به بحكم عدم الاختصاص في العمل الاتصالي والإعلامي مما جعلهم يغفلونه تماماً.

وأهمية هذه النقطة هي أنَّ الأمم التي جاءت لاحقاً لاسيما الغربيين قد وظفوا هذا العنصر الاتصالي للخطابة والذي أزكى شرارتَه الإسلام لخدمة أغراضهم السياسية رغماً عن مخالفتهم البينة لطرح الإسلام لقضية الحكم وقضية الإعلام. وهذا هو التحدي الذي نريدُ أن نواجه به علماء الاتصال الغربيين الذين أغفلوا دور المسلمين في هذا

المضمار. ولهذا السبب كان لا بُدَّ من إبراز الأبعاد الاتصالية للخطابة لا سيما المنبرية مَقروءةً مع طبيعة ممارستها الفنية التي أفرزتها التجربة الإسلامية كإحدى الوسائل الفاعلة ذات الاستدامة والتأثير في المجال المعرفي الذي نَبَعَ من حاجة الإنسان.

وهذا العُنصر نحسبُهُ جديراً بالإشارة إليه أكثر من بقية العناصر التي أولاها الكُتابُ المسلمونَ أهميةً أكبر، رغمَ أننا نُثَمِنُ الدور الذي لعبوه والذي لا يُمكنُ إنكارهُ أو التقليلُ منه على الإطلاق. إلا أنَّ الضرورةَ تقتضي تسليطَ المزيدِ من الضوءِ على خصوصية هذا النمط الاتصالي الإسلامي الذي أغفله العُلماء. والخطابة علمٌ من العلوم الإنسانية له أصولُهُ وأبعادُهُ وقوانينُهُ التي تضبطُ مساره.

وقد أشار عددٌ من العلماء إلى وجود علاقةٍ وثيقة بينها وبين علم المنطق ومنهم العلامة **(ابنُ سينا)** الذي أشرنا إلى رؤيته في السطور السابقة، حيث أكَّدَ ذلك في كتابه **(الشفاء)** الذي أشار بالعبارةِ الصريحة إلى أنَّ الخطابة قسمٌ من أقسام علم المنطق.

كما أنَّ لها علاقةً أكثرَ وثوقاً بعلم النفس، وعلاقةً شبيهةً بعلم الاجتماع. وقد اعتبرَ كثيرٌ من الفلاسفة الخطابة جُزءاً متمماً لعلم المنطق، خصوصاً بعدَ أن تمَّتْ ترجمةُ كتاب **(الخطابة)** للفيلسوف اليوناني **(أرسطو طاليس)** إلى اللغة العربية في بدايات القرن الثالث الهجري. وبعد ذلك جاءت رؤية الشيخ **(محمد أبو زهرة)** للخطابة التي

كانت على اتساقٍ تام مع ما ذهب إليه الفلاسفة –وعلى رأسهم ابن سينا– الذين نظروا للمنطق نظرةً شاملة استمرت لعقودٍ طويلة حتى ظهرَ جيلُ الفلاسفة المتأخرين الذين قصروا نظرتهم للخطابة على صور القياس وأشكاله وأدواتِهِ. ولعل التأثر الواضح الذي أبداهُ الشيخ أبو زهرة بهذا الطرح قد نبع من أنَّ المنطق خادمٌ لعلم الخطابة بحكمِ أنَّ كثيراً من قوانين الخطابة قد استندت على المنطق وَحْدَهُ في صياغة مبادئها وأساليبها وأهدافها.

ولذلك لم يجد الشيخ أبو زهرة حرجاً من أن يقول: ((**إنَّ المنطق ألزم العلوم للخطابة، وبينهما من وشائج القربى، وتداخل المسائل، وتقارب المناهج، وتداني المآخذ، ما سَهَّلَ على الأقدمين عدَّهُما علماً واحداً وما يجعلنا نحن المتأخرين نعدهما أخوين مُتحدي النسب**)) [59].

ومن خلال هذا السياق فإنَّ الخطابة قد تجاوزت كونها فناً لتُصبح عِلماً لهُ أُسُسُهُ، ومقوماتُهُ، ونِظامُهُ الدلالي، وشروطُهُ الخاصة التي تُميزُهُ عن بقية العلوم. ولعَلَّ المفارقة تتضح عندما نلاحظ أنَّ هذه الاعتبارات قد تضعضعت إلى حد التلاشي في بدايات العصرِ الحديث عندما قَلَّ التعامل مع الخطابة في أخريات القرن التاسع عشر. حيثُ تضاءَلَ دورُها الفكري، وتنكر الكثيرون لها كأسلوبٍ

[59] المرجع السابق، صفحة 8.

تعبيري، حتى أنَّ العديدَ من المؤسسات التعليمية في البلاد الإسلامية عندما أرادت تدريسها لناشئة الأجيالِ في المراحل التعليمية الصُغرى لم تجد لها إطاراً مناسباً فوضعتها ضمن نصوص الأدب العربي من خلال دروس التعبير، وهي قطعاً ليست كذلك رغم أنَّ محتوياتِها قد أفادت في هذا المضمار.

وأشارت بعضُ المناهج التي وضعتها وزاراتُ التعليم في سوريا وليبيا والجزائر للخطابة من خلال مقررات علم المنطق، وهي أيضاً اعتباراتٌ قاصرة بهذا الشكل الذي وُضعت به. ولذلك فإننا نقترح أنْ تُدرجَ الخطابة كفرعٍ قائم بذاته ليُدرس ضمنَ عُلوم الاتصال. وربما كانت هذه الرؤية لا تتسق مع نظرة الذين اعتبروها جزءاً من علم النفس بحكم أنَّهم أرادوها جزءاً من هذا العلم.

ووجهُ اعتراضنا على هذا الأمر هو أنَّ هؤلاء النفسانيين قد تناولوا من الخطابةِ عُنصراً واحداً فقط هو الدافعية التي أمْلَتْ رسمَ مُحتواها الخطابي، ثم ركزوا على الأثر الذي أحدثته هذه الدافعية من خلال المحتوي في السامعين.

ورغماً عن أهمية الدافعية والأثر إلا أنهما لا يضعان أرضيةً صُلبةً ودقيقة لتوصيف علم الخطابة، خصوصاً وأنَّ هذا المنهج الاستقرائي لتحديد العلاقة بين الأثر والمؤثر ظلَّ حبيساً لسنواتٍ طويلة في الإطار الذي وضعه لها كلٌ من **(بافلوف)** Baflof و**(ثرونديك)**

Throndaik في طرحهما لنتائج التجارب التي اقتصرت على الحيوانات الدُنيا. وهي نتائج قد تخدمُ أغراضاً في غير هذا المجال لأنها بحكم طبيعتها قد تجاوزت مُعطياتٍ كثيرةً في غاية الأهمية ومنها تقلباتُ النفس البشرية التي تتلقى مضمون الرسالة، وملابساتُ الحياةِ العامة التي تؤثرُ في تناول الموضوع، وصورة المجتمع الفكري الذي تتبلور من خلاله نظرة الخطيب للأمور المطروحة من خلال النص.

ولذلك فالذي نراهُ هو أنَّ حظ علم النفسِ ضئيلٌ في تصوير الدور التاريخي والعلمي للخطابة، ثم الشكل التعبيري الذي يُقدَمُ فيهِ المحتوى. وبالرغم من هذا فلا مَنَاص من استصحاب هذا الجانب النفسي في تفسيرِ الظواهر المصاحبة لرد الفعل الخطابي على السامعين عند التقويم العام لدور الخطابة الاتصالي.

الخطابة بين التعريف والتأطير

من خلال هذه الرؤى المتباينة لعلماء المنطق والاجتماع والنفس وملاحظات السلف في تحديد الإطار العلمي للخطابة وضع لها المنطقيون والحكماء تعريفاً يقول: **(إنَّ الخطابة هي القياسُ المؤلف من المظنونات أو المقبولات لترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم أو معادهم)**. والمظنونات هي الأمور التي يحكم العقل فيها حكماً راجحاً اتباعاً لغلبة الظن. والمقبولات هي الآراء التي يكون

مصدر التصديق فيها وقوعُها ممن لا شبهة في صدقه مع كونها قابلةً للإنكار[60]. وأطلق بعضُ اللغوين لفظ الخطابة على **(الخُطبة)** وهي الكلام المنثور المسجوع أو المرسل الذي يقصد به التأثير على السامعين وإقناعهم بمدلوله. وهي بذلك قد أُخذت من مصدرها اللغوي (خَطَبَ يخطبُ) أي صارَ خطيباً. وهي بذلك قد أصبحت إحدى مُقومات المتحدث الذي يتعاملُ من خلالها مع فنون اللغة بغرض التأثير على السامعين وإقناعِهم.

والخطابة بهذا المفهوم المبسط تُعتبرُ فناً من فنون الكلامِ المنثور البليغ الذي يُعنى بمخاطبةِ جمهور المتلقين بأسلوبٍ إلقائي يشتملُ على الاستمالةِ والإقناع لحشدِ المتلقين حول مبدأٍ من المبادئ أو توجيههم نحو هدفٍ معين. وهذا هو التعريف الذي تبناهُ كثيرٌ من الكُتاب ومنهم **(حَنَّا الفاخوري)** أحد المهتمين بعلم الخطابة [61].

وواضحٌ من هذا السياقِ أنه اشتملَ على عناصر معينة جاءت في مقدمتها ضرورة أن يكون الحديث مخاطبةً لجمهور من الناس، ثم الأسلوب الإلقائي، ثم عُنصر المهارة الذي يظهرُ من خلال تطويعِ المَلَكاتِ الفنية لدى الخطيب، والتي تبرُزُ من خلال جهارةِ

---

[60] المرجع السابق، صفحة 8.

[61] أنظر حنا الفاخوري، (1985م)، الموجز في الأدب العربي وتاريخه والأدب العربي القديم، دار الجيل، بيروت.

الصوت، وتكييفه بتطويعِ النَبَرات، وتجسيمِ المعاني التي تتضمنها الرسالة الخطابية. ويأتي بعد ذلك عُنصر الإقناع الذي يقتضي اشتمال الخطاب على أدلة وبراهين تدعَمُ صحة الفكرةِ المراد توصيلُها إلى المتلقي. وهذا لا يتأتى قطعاً بغير توافر عنصر الاستمالة الذي يُعنى بتوجيه أحاسيسِ السامعين وعواطفهم الوجدانية التي تؤثرُ في استجابتهم للرأي المطروح. وذلك لأنَّ المتلقي قد يقتنع بفكرةٍ ما لمجرد الأسلوب الذي طُرحت به هذه الفكرة وشكلية التوظيف العلمي لأدوات العرض.

وهذا بالطبع أحدُ عناصر الرسالةِ الاتصالية لأنه يحقق الغرض المطلوب منها سلباً أو إيجاباً. ولذلك إذا كان الخطيبُ فاتراً في إلقائه أو ضعيف التأثير في جُمهور المتلقين تضيع جميعُ أدلته التي يستندُ عليها هباءاً ولا تؤدي الغرضَ المطلوبَ منها.

إذن فهدفُ الخُطبةِ الأدنى هو التأثير في نفوس السامعين بإثارة أحاسيسهم ووجدانهم نحو الأمر المُراد الإذعان له، في حين أنَّ هدفها الأعلى هو توصيل معلوماتٍ بعينها للمتلقي في قالبٍ فنيٍ مؤثر بغرض خلق تغييرٍ في السلوك يتسقُ مع محتوى الرسالة.

وهذا هو العنصر الذي يجعل من المنبر الذي يحملُ هذه الخُطبة أداةً اتصاليةً كاملة السمات. حيثُ إنها تتسق بهذا المدلول مع الاتجاه الفكري الثالث لعلماء الاتصال الذين نظروا للاتصال باعتباره

عملية نفسية Psychological يتم فيها تحديد معاني الرموز عبر عمليات الاكتساب التي تعتمد على المعطيات الذاتية للفرد [62]. ويلعبُ المعنى المحدد الذي يكسبه الفرد للأشياء من حوله دوراً أساسياً في فهمه للعالم من حوله وتفاعله معه، وفي علاقته وتعامله مع الأفراد الآخرين ثم الأخذ بما تضمنته الرسالة مأخذ الجد والإذعان له.

ولكن بالطبع فإنَّ هدف الإقناع الخطابي ليس هو الإلزام والقسر، بل هو حمل المخاطب على الإذعان والتسليم بإثارة نزعة القبول والرضا من خلال توظيف الإقناع الذي يمر عبر بوابة العاطفة الفطرية لدى الإنسان، والتي تجعله يقبل ما يرتاحُ إليه ويلفظ كل ما تنفر منه نفسه التواقةُ للجودة.

وبالتالي فإنَّ هذا القبول قد يتحولُ إلى تعصبٍ للفكرة التي يدعو إليها الخطيب، وهذا هو غاية الإذعان الذي نجحت فيه الخطابة الإسلامية في معظم عصورها الباكرة والتي جعلت منها أداةً تستحقُ الدراسة.

إذن فالخطابةُ بهذا المفهوم تُعتبرُ أداةً للاتصالِ، ثُمَّ تتخطى ذلك لتكونَ إحدى قنوات الدعوة في المفهومِ العقدي الإسلامي. وهي بهذا المزج استطاعت أن تخلق لذاتها كينونةً أبقت على جذوتها

[62] محمود محمد قلندر، مرجع سابق، صفحة 9.

مستعرةً طوال القرون كإحدى وسائل الاتصال، والتوجيه، والمعرفة، ونشر المعلومات، والدعاية الفكرية والسياسية. ونتجَ عن ذلك عُنصرُ المواكبة الذي صاحبها كإحدى ضروراتِ الحياةِ الاجتماعيةِ في المجتمعات الإسلامية الأولى. ولكي نقف على تطور الخطابة المنبرية عبر السنوات لا بُدَّ من الوقوف على جذورها التاريخية وكيف لعب الخطباءُ ذلك الدور الذي أهلهم لرُقيٍّ هذه المرتبة الاتصالية العالية بعد نشأة المنبر. وبالطبع فإنَّ الخطابة قد ظهرت قبل مجيء الإسلام ذاته ثم تطورت في الإسلام، فكيفَ كان ذلك؟

اليونان وصياغة الأسس الخطابية

لم يكن المسلمون هم أول من وضعَ أسسَ الخطابةِ وقواعدَها، وإنما كان السفسطائيون اليونانيون هم أول من استنبط تلك القواعد في القرن الرابع قبل الميلاد. حيثُ قاموا بتعليم الشبان في أثينا طرق التغلب على خصومهم في ميادين المنافسة التعبيرية، وعلموهم فنون الجدل، وكيفية مقارعة الحجة بالحُجة، وكيف يموهون الحقائق على مناوئيهم بعباراتٍ دامغة لا تقبل الرد ولا الانهزام.

ولذلك أصبح أولئك التلاميذُ ذوي باعٍ وحنكة في الإلقاء وعرض المهارات الخطابية. وكان طبيعياً أن يلجأوا إلى استنباط قواعد

وقوانين لهذا الفن الذي أصبح واحداً من أحب الفنون إلى نفوس الأجيال المتعطشة للمعرفة والنهل من معين الحكمة التي ازدهرت في ذلك العصر. وأشارَ المؤرخونَ إلى أنَّ أول من وضع قواعد الخطابة من السفسطائيين ثلاثةُ رجالٍ أولهم: **(برويكوس القوسي)** المتوفي سنة 430 ق.م والذي بالغ في فرض الأجورِ الباهظة على التلاميذ الذين يأتون إليه لتعليمهم هذا الفن الذي برع فيه وملك ناصيته من جميع الزوايا.

ورغم أنه جمع أموالاً وفيرةً من هذه الدروس التي ألقاها على تلاميذه، إلا أنه أنفقها جميعاً في شهواته ومُجونه بحكم أنه كان أسيراً لشهواته إلى أبعد الحدود. وقد أفضى به ذلك الأمر للتمرد على حقيقة الوجود، فصرح لتلاميذه وغيرهم من العلماء بأنَّ الآلهة من مخترعات العقول ولا وجود لها في واقع الحياة. وقد أدى به ذلك الادعاءُ في نهاية المطاف إلى الهلاك حيثُ أُعْدِمَ بإجباره على تناول السُم [63].

وكان السفسطائي الثاني ممن وضعوا لبنات علم الخطابة هو الفيلسوف **(بروتاغوراس)** 485-411 ق.م الذي بالغ مثل رفيقه الأول في وضع أجورٍ باهظة على دروس الخطابة التي ألقاها على تلاميذه. وكان سلوكه الاجتماعي متأثراً بسلوكه العقدي الذي كثيراً ما انتابته

---

[63] محمد أبو زهرة، مرجع سابق، صفحة 9.

ظلال الشك في وجود الخالق. ولذلك فقد صرَّحَ مراراً وتكراراً بأنه لا يستطيعُ أن يجزم بوجود إلهٍ في الكون. والثالثُ هو **(جورجياس)** 485-380 ق.م الذي فتح مدرسةً لتعليم الخطابة تقاطر نحوها عددٌ كبيرٌ من الدارسين الذين أُعجبوا بأسلوبه. وقد جمع نتيجةً لذلك مالاً وفيراً ساعده في الثراء ونيلِ شُهرةٍ واسعة طبقت أرجاء المدن الإغريقية.

وكان من رأيه في حقيقة الوجود أنه لا يوجد شيءٌ، وإنْ وُجدَ شيءٌ فليسَ بالإمكانِ مَعرفَتُه، وإذا أمكنت معرفته لا يمكن للبشرِ تعريفُه. وبعد ذلك تعودَ الخطباءُ على أخذ المال مقابل خُطبهم التي يُلقونها على السامعين. فأخذ **(إشيل)** مالاً وفيراً مقابل عمله كخطيبٍ من ملك **(مقدونيا)**، وقبض **(ديموستين)** دنانير كثيرةً من ملك **(الفرس)** لنفس الغرض[64].

وبالتالي فقد أثرى هؤلاء الخطباء اليونانيون ثراءاً كبيراً من خُطبهم بحكم دورهم التعليمي الذي أصبح مرغوباً لدى الكثيرين، إلى جانب الدور الدعائي الذي قاموا به تجاه الأحزاب السياسية والحكومات. ونخلصُ مما سبق إلى عدةِ نقاطٍ أهمُها أنَّ الخطابةَ قد بدأت دعائيةً، وإعلاميةً، وتثقيفيةً، وترفيهية، وتعليمية. وهذه هي

---

[64] المرجع السابق، صفحة 9.

العناصر الرئيسية التي تبناها المنبرُ الإسلامي منذُ نشأته واستصحبها على مرِّ السنوات. وهي أيضاً نفسُ العناصر التي أصبحت فيما بعد أهدافَ الاتصال.

كما نخلص من هذا السردِ إلى نقطةٍ أخرى لا تقل أهميةً عن سابقتها، وهي أنَّ قواعد الخطابة قد وُضعت في ظروفٍ قلَّ فيها وجودُ وسائل اتصالية وإعلامية أخرى تساعدُ في نقل المعلومات أو تغيير المفاهيم. مما جعل الناسَ يهتمون بفن الكلام والمجاهرة به أمام الجمهور. وقد قادَ ذلك عدداً من التلاميذ لدفع أموالٍ باهظة للأساتذة الذين يُدَرِّسونَ هذا الفن.

والنقطةُ الثالثة هي أنَّ علم الخطابة قد برز على أيدي رجالٍ أقل ما يمكن أن يوصفوا به هو الزندقة والخروج على مِنوال الفطرة وناموس الطبيعة بحكم أنَّ منهم من تمادى في مجونه وانخراطه في الشهوات. وليس بالبعيد أن تكون الأموالُ التي كسبوها من مال تعليم الخطابة قد أسهمت في ذلك السلوك غير الحميد لهم. كما أنهم جميعاً قد أنكروا وحدانيةَ الإله الذي رمزوا له بلفظ الجمع (آلهة) وليس لفظ المفرد (إله) الذي يقتضيه مقام التوحيد الذي جاءت به الأديانُ السماويةُ على إطلاقها.

ولعل فكرة الشِرك المسيطرة على عقول الفلاسفة اليونانيين آنذاك والتي جعلتهم يتخذون إلهاً للشمس وإلهاً للجمال وإلهاً للخصب

والهاً للحب، والتي لم ينجُ منها إلا **(سُقراط وأرسطو وإفلاطون)**[65] قد كانت السبب الأساسي في نفور هؤلاء السفسطائيين عن مجرد فكرة الخالق التي أنكروها بدرجاتٍ متفاوتة في إشاراتهم: (*إنَّ الآلهة من مخترعات العقول ولا وجود لها في الواقع، لا أستطيعُ أن أجزم بوجود آلهةٍ في هذا الكون، لا يوجد شيءٌ، وإنْ وُجدَ شيءٌ فليسَ بالإمكانِ معرفته، وإذا أمكنت معرفته لا يمكن للبشرِ تعريفُه*).

لهذه الأسباب جاءت الخطابة اليونانيةُ مُرتكزةً على أسس الغلبة الذاتية القائمة على حمية القوة. وسندتها مهارة الألفاظ التي تدرب عليها الخطباءُ بمحض إرادتهم لدعم مواقفهم السياسية والفكرية. ولكن لم تكن **(الحقيقة)** هي مناط الرسالة الخطابية في ذلك العصر، بدليل أن واضعي لبناتها الأساسية قد هلكوا بحيدتهم عن الحقيقة ومجافاتهم للأخلاق. فهل كان هذا هو الميراثُ الخطابي الذي ورثته الأممُ اللاحقة ومنها أُمة الإسلام؟ في حقيقة الأمر اختلفت رؤية المجتمع الذي عاش في الجزيرةِ العربية عن رؤية الإغريق للخطابة. ولكنَّ هذا الاختلاف تباينَ عبر العصور مما جعلَ من الأهميةِ علينا

---

[65] تشيرُ الدلائل إلى أن سقراط قد كان موحداً ومؤمناً بالله ورافضاً لمبدأ اتخاذ الآلهة الإغريقية مصدراً للحياة، وقد أشار بعضُ العلماء المسلمين ومنهم الفارابي إلى أنَّ إفلاطون قد كان موحداً ولذلك ظهر التوحيد في عناصر مدينته الفاضلة. كما أنَّ كل هؤلاء الفلاسفة في نظر المسعودي وبينهم سقراط وأرسطو وإفلاطون قد كانوا موحدين لله على عكس أقوامهم من اليونانيين المشركين.

أن نُشير إلى بعضِ زواياهُ من خلال المنظور الإسلامي. حيثُ إنَّ اليونانيين هم أولُ من اعتبر الخطابةَ عِلماً له أسس وقواعد بحكم أنَّ الأثينين في ذلك العصر الذي عاش فيهِ **(بيركليس)** قد كانوا أهل فصاحة وشغفٍ بالحديث تأثراً بسلوك بيركليس بينهم.

وقد تطورت لديهم نزعةُ التعبير عَمَّا في نفوسهم حتى ملكوا ناصيتَهُ، وأصبح لديهم تأثيرهم القوي على جمهور المستمعين خصوصاً عندما أتقنوا فنون البلاغةِ وطوروا أساليب الفصاحة. وبالتالي فقد كانوا أول مَنْ كتب في علم الخطابة.

وكانت الخطب التي أُلقيَتْ في مجلس الأمة بأثينا هي المصدر الوحيد للأخبار والمعلومات خصوصاً ما تعلق بقرارات الدولة والاتفاقيات التي أبرمتها الحكومة لكي يلتزم بها الناس في حياتهم اليومية. وكانت أكثر الأخبار والمقررات التي بثها الخطباءُ بين الناس في تلك المرحلة هي المتعلقة بفرض الضرائب التي كانت باهظةً على المنتجين البسطاء من الفلاحين والعمال. كما كانت أخبار السوق، وأسعار المنتجات، وأشكالُ البيوع مادةً ثابتةً في الخطب الدورية بالمدن الإغريقية.

وفي سنوات الصراع كان إعلانُ الحرب قد ظهر من خلال الخطب التي أُلقيت في مجلس الأمة ثم انتقلت للأماكن العامة، ثم أصبحت أخبارُ الجنود عُنصراً هاماً للمستمعين، خصوصاً عندما

تعلقت التطوراتُ العسكرية بتوقيع اتفاقيات هُدنة، ووضعِ نهايةٍ للحرب، ورسمِ خُططٍ للسلام مع الدول المُحاربة. وفي تلك المرحلة أيضاً انتقلت عدوى الخطابة إلى المحاكم الأثينية وبعدها إلى جميع المدن الإغريقية.

تطورَ الدورُ الخطابي في الدولة الإغريقية بشكلٍ سريع وفعال بحكم سطوة المعلومة وأهمية الفكر وتنوع الأخبار وكثرة الأحداث. كما ساد الاعتقادُ بين الإغريق أنَّ الخطباء هم المصدر الوحيد للأخبار والتحليلات السياسية ونشر الثقافة بين الناس، خصوصاً وأن كثيراً من الخطباء قد كانوا هم الفلاسفة والعلماء أنفسهم.

وبالتالي فإنَّ مَنْ يملك الأخبار والمعلومات لا بُدَّ أن يملك السلطة. وبالفعل أصبح الخطباءُ هم ملاك السلطة في الدولة، حيث التزمت الحكومة بكل النصائح والآراء التي طرحوها، وعملت بإرشاداتهم ومواعظهم التي اعتبرتها إحدى المصادر الأساسية للهيبة والمَنعة وقوة النظام.

وطغى تدريجياً نفوذ الخطباء حتى عهدت الدولة إلى بعضهم بشئون المملكة. وعلى رأس هؤلاء الخطيب الشهير **(كليون)** الذي عُينَ قائداً للجيش. ثم **(ديموستين)** الذي عهدت إليه الدولة برئاسة

فريق الحرب المقاتل في المعركة التي أُطلقَ عليها اسم **(معركة فيليب)**.

الخطابة العربية القديمة

انتقلت الخطابة بكل سطوتها ومكانتها تلك إلى الأمة العربية في فترة ما قبل الإسلام التي اصطلح العلماءُ على تسميتها بالجاهلية. وكان لها موقعٌ متميزٌ وشأن عظيم في تلك الفترة التي ضاعت مُعظمُ خُطبِها بحكم عدمِ تدوينها، إلا أنَّ مِنْ سماتها القليلة التي وصلت من خلال المراجع نُزوعَها للوعظ والحِكَمِ القائمة على تراث القبيلة.

وقد تفرد خطباءُ الجاهلية شأنهم شأن خطباء اليونان بمراكز مرموقةٍ في الدولة، حيثُ تعادلت مكانتهم مع مكانة الشعراء الذين كانوا هم الناطقين الرسميين باسم القبيلة. حتى أنَّ **(أبا عَمرو بن العلاء)** قد تعجب من وضع الخطيب حينئذٍ حينما قال: **((إن الخطيب في الجاهلية أصبحَ فوق الشاعر))**[66].

وربما كانت هذه من صيغ المبالغة التي أراد بها أبو عَمرو أن يُوضح الدور الكبير المُناط بالخطيب إلا أنه حتماً لم يكن فوق

---

[66] أنظر صلاح الصفدي، (1953م)، معجم الأدباء والوافي بالوفيات، تحقيق مرجليوث، الجزء السادس، المطبعة الهاشمية، دمشق، صفحة 336.

الشاعر بحكم القدسية التي وضعها الجاهليون للشعراء كقادةٍ للفكرِ والثقافة، وحاملين للواء القبيلة في كل المحافل، بل وكقادةٍ سياسيين في كثيرٍ من الأحيان. وقد ازدهرت الخطابة في هذا العصر لوجود دواعٍ كثيرة منها أنَّ الأمة الجاهليةَ كانت أمةً حربية، وقد توفرت لها وقائعُ وصداماتٌ لا تُنسى ومعاركُ بين الأشقاء دعت إليها طبيعةُ الحياةِ البدوية. وكانت تلك الظروف مدعاةً لازدهارِ الخطابة وجعلها الأسلوب الأمثل لإظهار القوة والمنعة والسلطان.

وكان الناسُ يتنازعون السلطة في الرفادة والحجابة وغيرهما. وقد غذى تلكَ النزعاتِ كونهم على اتصالٍ مستديم بالأمم المجاورة للجزيرة العربية كالفرس والروم وغيرهم. حيثُ كان ذلك أيضاً نذيراً من نُذُر الحروب بحكم المناوشات المستمرة والأيامِ الطاحنة التي علا فيها صوتُ الخطابة في كثيرٍ من المحافل.

وبالإضافة إلى تلك النهضةِ السياسية كان الجاهليونَ على جانبٍ كبيرٍ من الحضارة اكتسبوه من اليمن التي اتصلوا بها ثم اشتبكوا معها أيامَ الحروب[67]. واتفق مؤرخو الأدب على قوة الخطابة الجاهلية وازدهارها بحكم تملك القومِ ناصيةَ البيانِ وتمكنهم من البلاغة وفصاحة الألسن التي اعتمدت على سليقة اللغة. وكما كان

[67] عبد الله عبد الجبار، ومحمد عبد المنعم خفاجي، (1986م)، قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، صفحة 44.

الخوفُ من غدر القبائل والمنازعات سبباً آخر للدفاع عن النفس والعرضِ والمال والانتقامِ من الأعداء. ثمَّ إنَّ الناسَ قد تمتعوا بقدرٍ كبيرٍ من الحرية في إبداء الرأي دون أي قيودٍ. ولذلك استُخدمت الخطابةُ كأداةٍ للمنافرة بين القبائل، وفي نفس الوقت أداةً لتحية زعمائها، حيثُ وقفَ أحدُ البدويين بين يدي أمير **(الغساسنة)** و**(المناذرة)** وحيًّا بخطبةٍ عصماء أصبحت مثار حديثِ النقاد والدارسين على مدى الأعوام.

كما أفرزت حياةُ البداوةِ المتأثرة بالسلوك الجاهلي نوعاً من الغلظةِ والرعونة تجلى في استخدامِ العنف لأبسط الأسباب حتى ولو كان ذلك العنف مفضياً إلى الموت. ومن ذلك ما ورد عن الشاعر **(عَمرو بنِ كلثوم)** الذي أخرج سيفه وقتل به الملك **(عمرو بن هند)** داخلَ قصرِهِ وبينَ جنوده لا لشيء إلا لأنَّ **(هِنْدْ)** أمَّ الملك قد استفزت **(ليلى)** أمَّ الشاعر بقولها: ((**ناوليني يا ليلى ذلك الطبق**))[68].

والأدهى من ذلك أن الشاعر بعد أن قتل الملك لم يهرب، ولم يتزحزح شبراً عن مجلسه في بلاط القصر، وإنما ظلَّ على أريكته ودماء الملك تسيل بينَ يديهِ ليُكمل قصيدتَه العصماءَ **(ألا هُبي بصحنك فاصبحينا)** التي بدأ في إلقائها أمامَ الملك القتيل قُبيلَ هذا

---

[68] أنظر الزوزني، (1972م)، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت، صفحة 177.

التصرف، والتي أصبحت إحدى أشهر المعلقات السبع [69]. في بيئةٍ مثلِ هذه كانت أبرز سمات المجتمع هي الاعتزاز بالقبيلة والاهتمام بالنسب والعِرق والشرف، ولذلك كانت الأنفة، والكبرياء، والخوف من العار هي الموجهات الرئيسية للسلوك البشري. وقد انعكسَ ذلك بشكلٍ واضح في بروز بعضِ القيم مثل موالاة الرفيق، وإيواء الضيف، وحماية الجار، والأخذ بالثأر عند الاحتراب، والتباهي بالأقارب والأشقاء وأفراد الأسرة الأقربين.

وهذه المعطياتُ أجمعها كانت وقوداً لتغذية الخطابة بحكم اعتمادها على الدعاية والإعلام والجدل المفضي للإقناع. ووجدت الخطابة مرتعها الخصيب في هذه الظروف حين تيقنَ الفرقاءُ من ضرورتها للحياة.

استمر هذا الدور الذي جعل من الخطابة أداةً للتفاخر واستنهاض الهمم لا سيما في أيامِ الحروب. حيثُ استفادَ فرسانُ القبائل منها في تثبيت مقاتليهم، ورفع روحهم المعنوية، ونشر الحماسة والحمية بين المتخاذلين منهم كي يخوضوا غمارَ المعارك الملتهبة،

---

[69] تقول المصادر إنَّ المعلقات عشر وليس سبع كما اشتهر بين النقاد. وهي القصائد التي كُتبت بماء الذهب وعُلقت في جدران الكعبة المشرفة تقديراً لمستواها الفني الرفيع. وقد كُتبت جميعها في فترة ما قبل الإسلام (الجاهلية)، وهي: معلقات (امرئ القيس الكندي)، (طرفة بن العبد)، (عنترة بن شداد)، (زهير بن أبي سلمى)، (عمرو بن كلثوم التغلبي)، (الحارث بن حلزة اليشكري)، و(لبيد بن ربيعة).

ومن ثَمَّ أصبحت هي الوسيلة المُثلى لجمع الكلمة وتوحيد الصفوف. وبنفس القدر الذي قادت به الخُطبُ الجاهلية إلى الغلظة والتفاخر والاقتتال بين القبائل قادت أيضاً إلى التسامح والصلح بين المتخاصمين والتناصح فيما بينهم. مما جعلَ فِعْلَ المحاسن وتَرْكَ الرذائل جُزءاً من الفضائل التي تجملوا بها في كثيرٍ من الأحيان.

وكانت معظم خطبِهم قد قيلت في أماكنَ مخصصة لها، وهي أسواقُ الأدب التي شهدت كثيراً من الخُطب والقراءات الشعرية حتى بعد ظهور الإسلام. ومنها أسواقُ **(عُكاظ)** و**(ذي المجن)** في الجزيرة العربية، ثم **(المربد)** في العراق.

وقد اعتمدت الخطابة في الجاهلية على أسلوب السجع بقصد تحبير الكلام وتنسيقه ليكونَ أكثر تأثيراً في السامعين [70]. ورغم أنَّ ذلك السجع لم يكن من الفنون السهلة أو الميسورة لكل إنسان إلا أن الخُطبَ الجاهلية قد تميزت بقلة الأخطاء والإيجاز في محتوياتها. وكانت في معظمها تُلقى ارتجالاً دون إعداد، وذلك لكي تُبرِزَ مَلَكةَ الخطيبِ في المواجهة.

ولعل الجاهليين قد لجأوا لذلك الارتجال بالسليقةِ الفطرية، عكس اليونانيين الذين أجبرتهم الظروف على الارتجال. وذلك لأنَّ نظام القضاء اليوناني كان يفرض على الشخص الذي له قضيةٌ أن

---

[70] عبد الله عبد الجبار، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مصدر سابق، صفحة 63.

يقدم حيثياتِهِ بنفسِه في شكل خُطبة، حيثُ لا تقبلُ المحكمة مثولَ أي شخصٍ أمامها لينوبَ عن صاحب القضية الأصلي ما دامَ قادراً على الكلام. ولذلك لجأ كثيرٌ من المتقاضين إلى أفرادٍ بارعين في التعبير الخطابي ليكتبوا لهم خُطباً يُلقونها أمامَ المحاكم التي أصبحت جُزءاً من محافل الاستعراضِ الخطابي.

وكان المتقاضون في كل الأحوال يحفظون الخُطبَ التي تُكتَبُ لهم عن ظهر قلب، لأنه لا يُقبلُ قِراءتُها من الرقاع المكتوبة. وقد أدى ذلك لتطور ملكات الكتابة والحفظ عند اليونانيين.

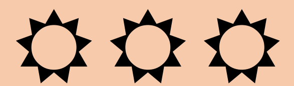
إلا أنَّ أهل الجزيرة العربية قد ألفوا روحِ الارتجال خصوصاً وأنَّ معظمهم كانوا لا يعرفون القراءة والكتابة، حيثُ أشار إليهم القرآن الكريم: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم..**﴾[71] الخ الآية، وكانت خطابتهم تتوافق مع مناسباتهم المختلفة التي كثُرت على مرِّ الأيام واتسقت مع معطيات حياتهم البسيطة.

وقد كانت أبرز أغراض الخطابة في تلك المرحلة هي التفاخر بالجاه، وقوة الساعد، وكثرة العدد، وامتلاك المال والعتاد الحربي وأسباب التطاول في المجتمعات. وقد غذى تلك المعطياتِ بالطبع كون الناس قد خلت حياتُهم من المسئولياتِ الجسام التي

[71] قرآن كريم، سورة الجمعة، الآية رقم 2 {هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين} (2).

يفرضها تعقد الحياة. حيثُ إن حياة الجاهليين ليس فيها ذلك التعقيد، ولك تطرأ عليها المشاغل التي تُغير سلوك الناس كالعادة. وعندما نهضت الخطابة ظفرت بمنزلة عظيمة بحكم تلك الظروف وكثرة الأحداث، ووفرة المعارك، ونمو القبائل. ولكن ظلَّ المأثور منها أقلَّ بكثيرٍ من الشعر الذي رُويَ عن تلك الفترة. وذلك لصعوبة حفظ النثر واسترجاعه بالشكل الذي يحدث للشعر، وذلك بحكم عدم التزام النثر بأوزانٍ أو قوافٍ كما في الشعر.

وقد أدى ذلك إلى ضياع كثير من الخطب التي قيلت في ذلك العصر الذي اختلف الرُواةُ في نسبة بعضِ نصوصه إليه بحكم تقادم العهد وطولِ المدة [72]، ومن ذلك الخلاف المحتدم التي ثار بين الدكتور (**طه حسين**) ومعارضيه، والذي ظهر من خلاله كثيرٌ من التشكيك في النصوص الجاهلية ومنها الخطابة، فيمكن الرجوع إلى ذلك في مؤلفات الدكتور طه حسين وعلى رأسها كتابه (**الأدب الجاهلي**).



[72] عبد الله عبد الجبار، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مصدر سابق، صفحة 74.

الفصل الخامس

❇❇❇❇❇

أهداف وأساليب الخطابة المنبرية

الفصل الخامس

أهداف وأساليب الخطابة المنبرية

❊❊❊❊❊

تعرضت حياةُ الأعرابِ بعد ظهور الإسلام إلى انقلابٍ كبيرٍ وشامل في كل مناحي الحياة، حيثُ أصبحَ التطور سِمةً للعصر الجديد بحكم دخول مفاهيم جديدة ومُثل عليا ومبادئ مختلفة طرحها الإسلامُ، وكانت في مجملها على النقيض من المبادئ التي فرضتها البيئةُ الجاهلية والحياة القبلية.

فعندما جاء الإسلام أصبح العربُ دُعاةَ توحيد يجمع شمل الكثيرين من أفرادِ القبائل التي ظلت على خصامٍ ونفورٍ مفتعل على مدى الأعوام. وظهرَ نظامٌ سياسيٌّ جديد دعا للتعايش السلمي والأخوي بين الأفراد، وتبدلت أحوالُ الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية للناس.

وقد كانت كلُّ هذه الظروف والمعطيات الجديدة إشارةً للعطاء الإنساني بأن يزدهر، وللمبدعين أن يُطوروا أساليبهم في عرضِ ما لديهم. وعلى رأس هذا العطاء كانت الخطابة التي تبدلت قلباً وقالباً. حيثُ أصبحت غايةُ الخطيب أن يؤثر في النفوسِ والأرواح ليمتلك نواصي القلوبِ العامرة بالحب والإيمان والخالية من البغض وحب

الاقتتال. ولذلك لم يكن كافياً للخطيب أن يصل إلى ذلك الهدف بإيجاد أدلةٍ لفظيةٍ فقط، وإنما أصبحَ لزاماً عليه أن يتجمل بآدابٍ نفسية وقِيمٍ أخلاقية وروحية لم تكن مألوفةً من قبل، ثم يتصدى بعد ذلك للحديث أمام الناس.

وكان هذا التغيير السلوكي والعقدي عُنصراً هاماً جذبَ القلوب إلى الخطابة بحكم التطور الذي طرأ على مفاهيم القوم. ثم بحكم التأطير الذي حدث لشكل ومضمون الخطابة نفسها عندما فُرضت كإحدى مقومات الصلاة في أيام الجمعة. ولذلك أصبح المنبرُ في حد ذاته حدثاً شغلَ بالَ الناس، وتحدثوا عنه كثيراً، ووقروه، واعتبروا بما يصل إليهم منه من مواعظ ودروس علمية وأحكام فقهية وتعاليم حياتية، ومعلومات جديدة تُضاف إلى حصيلتهم المعرفية، وأخبار مهمة لم يسمعوا بها من أي وسيلةٍ إخباريةٍ غيره.

ولذلك تأثرت جميعُ الخطب في تلك المرحلة بروح المنبر حتى ولو أُلقيت خارجَ إطارِ المسجد. وكان من أبرز سمات تلك الخطب وجودُ الرأي، والحُجة القائمة على أساسِ ما أثبته الدين، والتمييز بين الحق والباطل، ومحاولة الاهتداء إلى الحقيقة بالأدلة العلمية. ولذلك اعتمدت جميعُ الخطب في هذه المرحلة على صدق اللهجة، وصحة القول. وقد ظهرَ ذلك حتى في ملامح وجوه الخطباء. حيثُ وصفه الكاتبُ **(زكريا عبد الرحمن صيام)** باستفاضة حين أشار إلى أنَّ

طهارة القلوب والإخلاص في العمل والتقرب إلى الناس بالتحلي بالوقار والعفة والوفاء والأمانة وعزة النفس كانت سلاح الخطابة في صدر الإسلام[73]. وكان الدافعُ لذلك أنْ يظهر الخطيبُ كإنسان كامل خالٍ من العيوب والأغراض حتى يؤثر في الجموعِ المتحلقة حوله.

كما كانت رباطةُ الجأش قد حفظت كرامة الخطباءِ، وأبقت على عقولهم متفتحةً أثناء أدائهم لدورهم الرسالي على المنابر. وقد استفادوا من بديهتم الحاضرة وسرعة خواطرهم، وتوقد أذهانهم فكان ذلك مدعاةً لطلاقةِ ألسنتهم التي أدت إلى جذب السامعين إليهم.

تَطوُّرُ الخُطبِ المنبرية على حِساب الشِعر

كانت الخطابة في العصر الإسلامي قد نهضت نهضةً واضحة ظهرت في بروزها كإحدى الفنون الشعبية، مما أدى إلى اتساع ميادينها التي أسهم فيها تحول الحياة الأدبية للعامة. وقد أدى هذا البروز الخَطابي إلى ضعفِ الشعر وانصراف الناس عنه [74].

ولم يكن ذلك بسبب نضوب المعين الشعري، وإنما كان بسبب اهتمام المسلمين بالقرآن الذي لم يترك لهم وقتاً لكتابة الشعر أو

---

73 زكريا عبد الرحمن صيام، (1983م)، الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، دار النصر للطباعة الإسلامية، صفحة 101.

74 المرجع السابق، صفحة 103.

الاهتمام به. ثم إنَّ القرآن الكريم قد نفى عن النبي ﷺ صفة الشاعر كما نفى عنه صفة السحر. ولذلك شعرَ الكثيرون أنَّ تعاطي الشعر قد أصبح مَذمةً وليسَ محمدة وفقاً للمدلول اللفظي للآية الكريمة: ﴿**وما علمناه الشعرَ وما ينبغي له**﴾[75]. ثم قوله تعالى: ﴿**والشعراء يَتَّبِعُهم الغاوون، أما ترى أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون**﴾[76].

وبغض النظر عن الآية التالية لهذه الآية، والتي استثنت الذين آمنوا وعملوا الصالحات[77] بدا كثيرٌ من القومِ نافرين عن صنعة الشعر التي توارثوها منذُ سالف الأزمان. ونفر بعضهم حتى من الاستماع للشعر مخافةَ الوقوعِ في المكروه.

ورغم أنَّ النبي ﷺ قد أوضح بجلاء مدلول هذه الآية والفرق بين شعرٍ وشعر، وأكدَّ أنَّ محور الرفض هو المضمون الشِعري وليس المبدأ الشعري، إلا أنَّ ذلك ظلَّ هاجساً في نفوس الكثيرين كجزءٍ من الورع واتقاء الشبهات. وقد أقرَّ النبي ﷺ العديد من قصائد الشعراء

---

[75] قرآن كريم، سورة يس، الآية رقم 69 {وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين} (69).

[76] قرآن كريم، سورة الشعراء، الآية رقم 226 {والشعراء يَتَّبِعُهم الغاوون، أما ترى أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون}.

[77] تقول الآية الكريمة: {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون}، سورة الشعراء، الآية 227.

التي أُلقيت أمامه، وحفَّزَ بعضهم مثل **(كعب بن زهير)** الذي خلع عليه بُردَتَه. ثم عملَ على استنفار المسلمين للقتال بقصائد **(حسان بن ثابت)** و**(تماضر الخنساء)** عندما حثها بقوله: {**إيهِ يا خُناس**}، إلا أنَّ الشعر تراجعَ رغم ذلك عن دوره الذي لعبه في الجاهلية تاركاً المجال للخطب المنبرية كأداةٍ أنسب للتعبير عمَّا في النفوس. ولهذا السبب فضلها الكثيرون على الشعر الذي انتكسَ في بعض المراحل حتى أصبحَ وسيلةً للارتزاق والتكسب في بعض الأحيان.

وكان أسلوبُ القرآن الخطابي دافعاً تلقائياً للمسلمين للحرص على الخطابة التي بدت وكأنها مُساعدة على تبيين مقاصده ووضع أهدافِهِ موضعَ التنفيذ. كما أنَّ معظم أصحاب رسول اللهِ ﷺ وقُوادهِ ووُلاةِ الأمصار والدعاة والزعماء قد كانوا خُطباء مُفوهين.

ثم إنَّ الشعرَ الذي نجح نجاحاً باهراً في استنهاضِ الهمم لموالاة الدين الجديد وفي تحريك النفوس للجهاد فَشِلَ فشلاً ذريعاً أنْ يُؤدِيَ وظيفة تعليم الناسِ قواعدَ الدين الجديد، وبالتالي فشلَ في مواصلة الدعوة لنشر الدين بالشكلِ الذي فعلته الخطابة.

وإذا عُدنا إلى شكل التعبير اللغوي في الخطابة الإسلامية نجدُ أنها قد تميزت باستخدام السجع والمفردات المنمقة بالجناس والطباق، إلا أنها قد اختلفت قلباً وقالباً عن أسلوب التعبير الذي تعارف عليه أهلُ الجزيرة العربية في نظم الشعر ذي الأوزان والقوافي والجرس

الموسيقي الخاص. حيثُ كان الاختلاف الرئيسي بين الخطابة والشعر هو أنَّ الأولى ظلت على الدوام معتمدةً على قضية الإقناعِ الفكري باتباع المبادئ أو جذب الناسِ نحوها. في حين عُرفَ عن الشعرِ اهتمامُهُ باستجاشةِ العواطف بأسلوبٍ يُشيعُ الطربَ ويعتمدُ على وقعِ الحروفِ والعبارات الرنانة التي يعرضُ الشاعرُ من خلالها صوراً جماليةً لأساليب الحياة المختلفة دون الاهتمام بصدق المعلومات وحقيقة أمرها. حتى قال بعضهم إنَّ أعذبَ الشعرِ أكذبُهُ. وهو بذلك قطعاً عكس الخطابة التي لم يعرف الكذبُ إليها سبيلاً، ولذلك اتصلت معانيها بأغراضٍ اختلفت كثيراً عن أغراضِ الشعر.

ورغم أنَّ البعضَ قد أرادَ تطويعَ الشعر لخدمة القضايا الفكرية والقضايا المتعلقة بحياة الناس من شتى زواياها، خصوصاً ما تعلق منها بأمور العقيدة والسياسة والنظام الاجتماعي إلا أنه ظلَّ متواضعاً في خلق هذه التوليفة للكيانات الجديدة مقارنةً بما فعلته الخطابة التي برعت في مُجاراة الأسلوب الدعوي عندما استمدت بعضَ معانيها وتعابيرها من القرآن الكريم.

وقد شجع على ذلك كون الرسول ﷺ نفسه كان خطيباً بارعاً وامتلك ناصية الجذب والإقناع. وكان ذلك مدعاةً لإفساح المجال أمامَ الخطابة لتُعضِّدَ قضيةَ الدعوة بأسلوبها الخاص، فنجحت في ذلك نجاحاً باهراً مما جعلَ الشعراء أنفُسهم يفخرون بها ويتغنون بأمجادها.

ولذلك اعتُبرت الخطابة في العصر الإسلامي أكبر مقاماً من الشعر، حيث اعتمدَ عليها المسلمون في المواقف الجادة. واستطاع الخطباء من خلالها أن يشرحوا المبادئ التي دعا إليها الدين وبنوا عليها أدلتهم اللفظية والمعنوية.

وقد انعكس كل هذا ليجعل من المنابر قبلةً لطلاب الحقيقة وعشاق المعرفة فتوافدوا نحوها زُرافاتٍ ووحداناً. ولم تبخل هي بإعطائهم ما أرادوا. وبما أنَّ ميادين الخطابة قد تشعبت في صدر الإسلام فقد شارك فيها المستمعون أيضاً بالحوار في مختلف المواقف، وطرحوا استفساراتهم على الأئمة والوعاظ حول ما استعصى عليهم فهمُه من الأمور الغامضة.

وبالمقابل فقد خدمت الخطابةُ عدداً من المحاور المهمة في حياة الناس مثل: الحث على القتال، والأخذ بالثأر، والدعوة إلى الصلح بين المتخاصمين، والمفاخرة بمكارم الأخلاق، والتواصل بين الأمم، ونشر العلم والفضيلة بين الناس [78].

وكانَ ظهورُ الإسلام في الجزيرةِ العربية وانتشاره بتلك السرعة قد جعل الأمم المجاورة تقف على أُهبة الاستعداد للتغيير الذي ينتظرها في المستقبل. وبالفعلِ سرعانَ ما بدأت الفتوحاتُ الإسلاميةُ في كل الاتجاهات. ولعبت الخطابةُ مرةً أخرى دوراً في هذه الفتوحات

---

[78] المرجع السابق، صفحة 68.

بحكم طبيعة الأمم التي أسرتها الكلمة وتغلغلت فيها العباراتُ ذاتُ المغزى التي أفرزها خُطباءُ الدين الجديد، فكانت الخطابة محور الدعاية لهذا الدين. ونشرَ الخطباءُ من خلالها مفهومَ العقيدة، وملابسات الغزوات نفسها وما دعا إليها من واجب الإنقاذ من الضلال.

ثم واصل الخطباءُ دورهم كمفسرين للنصوص، ومُحللين للسياسات التي اتخذتها القياداتُ الإسلامية، ومهدئين لخواطر القبائل التي تشككت في مصيرها بعد دخولِ الإسلامِ في أراضيها. وكان السندُ الأقوى لهم في كل هذه المراحل الدعائية هو نصوصُ القرآن الكريم الذي أتى بأساليب ومعانٍ وفنونٍ مختلفة تمام الاختلاف عمَّا كان في السابق.

وقد شجعَ الرسولُ ﷺ أصحابه على اتخاذ الخطابة في تلك الظروف وسيلةً للإعلام والدعوة إلى الإسلام. وإمعاناً في تقدير هذا الدور الذي لعبته الخطابة لتحقيق تلك الغايات جعلها النبي ﷺ بأمر الله سبحانه وتعالى شعاراً دائماً لأئمة المسلمين في احتفالاتهم الدينية والسياسية والاجتماعية مثل صلاة الجمعة، وصلاة العيدين، والمواسم الدينية كالحج إلى بيت الله الحرام[79].

---

[79] أنيس المقدسي، (1980م)، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، مكتبة الجيل، بيروت، صفحة 75.

غاياتُ الخطابة المنبرية

كانت أهمُّ غايات الخطابة في هذه المرحلة المبكرة للإسلام قد تمثلت في الدعوة للدين، وتوحيد الله، وترك الأصنام، والحث على الجهاد، ونشر التعاليم الجديدة، وشرح منهاج الحكم، وحل المشكلات السياسية، وتأييد البيعة.

ثم عندما ظهرت الطوائفُ والأحزابُ الدينية استخدمَها الساسةُ المسلمون لمناصرةِ حزبٍ على حزب ودعوةِ الناسِ للانضمامِ إلى هذا الفريق أو ذاك. وظهر في تلك المرحلة عددٌ من الخطباء المفوهين ومنهم: **(الإمام علي بن أبي طالب)**، و**(زياد بن أبي سفيان)**، و**(قُتيبة بن مسلم)**، و**(عمرو بن سعيد)**، وغيرهم [80].

وكان لتأثر أسلوب الخطابة في هذا العصر بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أثرٌ في احترامِ الناسِ للخطابة ووضعها موضعاً أسمى بين أساليبِ التعبير. وبالمقابل أدى ذلك إلى قوة المفردات وسرعة وصولها للنفوس وامتلاكها لوجدان السامعين الذين امتثلوا لمواعظها الزاجرة ونصحها الصادق.

ورقت نُفوسُ أهل البادية القاسية لذلك الأدب الرفيع الذي نشرته الخطابةُ بينهم، حتى أنَّ بعضَهم ذرفوا المدامع عند سماعهم لبعضِ الخطب المؤثرة رغم أنَّ دموعَهم قد استعصت على الأسيافِ

---

[80] المرجع السابق، صفحة 72.

والرماحِ في ساحات الوغى. ولاحظوا أنَّ هذا الدين الجديد غيَّرَ أسلوبَ الخطابةِ القديم الذي قامَ على سجع الكهان، حيثُ أصبحَ قاسمها المشترك هو صفاء الألفاظ وسهولة العبارة مع متانة الأسلوب. وارتبطت أجزاؤها في هذه المرحلة بالمعاني الفكرية ارتباطاً منطقياً جعلها متحدةَ الموضوع وذات بدايةٍ ونهاية، وأصبحتْ مَدعاةً للجدل الفكري ومقارعة الحُجةِ بالحُجة واتساع دائرة المنطق الحواري.

كما تميزت الخطابة الإسلاميةُ منذُ بدايتها بنبل المقاصد، وسمو الأغراض، وتنزهها عن النزعات الشخصية. فقد قامت على الدعوة إلى الخير واتباع المبادئ الراقية. ودعت إلى السلم، والحفاظ على روح التآخي بين الناس، والحث على اتباع الفضائل بأشكالها المتعددة [81].

ولا شكَّ أنَّ ظهور الإسلام في حد ذاته كان أمراً خطيراً في حياة البشرية، ولذلك لم يقف أثره على ترك عبادة الأوثان والإخلاص في العبادة، وإنما انعكس حتى على كل مجالات الحياة العامة بما فيها من عاداتٍ وتقاليد وأعراف نبعت من القناعات القديمة.

ولذلك كان على المنبر أيضاً أن يستصحب هذه المعطيات ويُترجمها إلى واقعٍ ملموس من خلال الخُطب حتى يُعايشها الناسُ

---

[81] السيد أحمد الهاشمي، (1989م)، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، بيروت، ص 58.

على الطبيعة. ولذلك قامت المنابرُ بعبء تبليغ الرسالة بكل خصوصيتها وتفردها، وشرحت مبادئ الإسلام بأسلوبٍ تلقفه الناسُ بشكلٍ ميسور. وكان ذلك بدوره سبباً آخر في النهضة وظهور عدد من الخطباء الذين أثروا الحياةَ العامة. وأصبحت الخطابة مظهراً من مظاهر حرية الرأي في عصر الرسول ﷺ واستمرت بنفس الشكل في عهد **(أبي بكرٍ الصديق)**، وكذلك في عهد **(عمر بن الخطاب)** الذي رغم أنه كان امتداداً لما سبقه. أما في خلافة **(عثمان بن عفان)** فقد بدأت الفتنةُ الكبرى التي أدَّت إلى انقسام المسلمين بعد بيعة التحكيم [82] مما أعاد للخطابة رونقها ومكانتَها الصدارية.

أسلوب الخُطب المنبرية

اتخذت الخطابة في العصر الإسلامي الأول شكلاً فنياً جديداً هو الابتداء بحمد الله والثناء على رسوله المصطفى ﷺ حتى أصبح التحميد والصلاة على النبي سُنةً من سُننها. وبدأت تُحاكي أسلوب القرآن الكريم في الإقناع والاقتباس من الآياتِ الكريمة بغرضِ الاستشهاد بها في المواقف المختلفة. كما بدأ الصحابةُ يحاكون أسلوبَ النبي ﷺ في الحديث، وهو أسلوبٌ رصينٌ ومتفرد اعتنى

---

[82] محمد بن عبد الوهاب، (1956م)، مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، صفحات 415–420.

بالمعاني واعتمدَ على تأييد القول بالحجةِ والبرهان العقلي. وتخلَّصَ الخطباءُ تلقائاً من سرد الحِكم والأمثال التي كانت سائدةً في الخطب الجاهلية. إلا أنَّ بعضَ الخُطباء ومنهم **(أبو بكر الصديق)** و**(علي بن أبي طالب)** رضي الله عنهم كانوا يستشهدون ببعض الأمثال والأبيات الشعرية التي ساعدتهم على تأكيد المعاني التي يقصدونها.

وقد اتخذت الخَطابة في هذا العصر ختاماً إسلامياً اختلف عن ختامها في الجاهلية. حيث كان الجاهليون يكررون الجمل الأخيرة أو جملةً بعينها. ولكنَّ الخطباءَ المسلمين ظلوا يذكرون بعضَ العبارات من النصوص القرآنية والحديث النبوي الشريف.

أما نقاط الاتفاق بين الخطابة الجاهلية والخطابة الإسلامية فهي أنَّ معظم الخطب الإسلامية ظلت قصيرةً كالخطب الجاهلية إلا ما اقتضى المقام تطويله، حيثُ لم يكن تطويلُ الخطبةِ أمراً مُحبباً لا عند الجاهليين ولا عند المسلمين.

وكان الجميعُ يؤيدونَ أنَّ الخطبةَ القصيرة أدعى للحفظ والرسوخِ في وجدان المستمع من الخطبة المطولة. حتى أنَّ **(أبا بكر الصديق)** رضي اللهُ عنه قد أوصى **(يزيد بن أبي سفيان)** حين أرسله إلى الشام بقوله: «**إذا وعظتَ الناسَ فأوجز فإنَّ كثيرَ الكلام يُنسي بعضُه بعضاً**». أما نقاط الاتفاق بين خطب الجاهلية والإسلام من حيث المظهر الأدائي فهي اتخاذ بعض الطقوس الشكلية ومنها لبسُ

العمامة، والاشتمال بالرداء، والوقوف على مكان مرتفع من الأرض أو اتخاذ منبر ليرتقي عليه الخطيب [83].

المنبر وحرية التعبير

عندما أصبحت الخَطابةُ جزءاً من رسالة المسجد في صلاة الجمعة سرى في الناس إحساسٌ قويٌ بمكانتها وكأنها أمرٌ جديدٌ على حياة المسلمين. وتزايدَ الإحساسُ بدورها التعليمي والإعلامي بحكم أنها أصبحت إحدى ضرورات السلوك العقدي القائم على أساس التوجيه وتغيير السلوك والمفاهيم.

وصارت الخُطبةُ بذلك أداةَ التوجيه المُثلى للخلفاء الراشدين والصحابة رضوانُ الله عليهم والمصلحين الاجتماعيين. ثمَّ أخذها المرشدون الدينيون وزعماء القبائل وأساتذة العلم وقادة الفكر مأخذ الجد حتى تنفست الأُمةُ من خلالها الصعداء. حيثُ كان التصريح بما يجيشُ في الخواطر عنصراً انعكست من خلاله آمالُ وطموحاتُ الناس التي انطلقت من قيود الذل والظلم التي كانت تعيش عليها قبل انتشار هذا الأسلوب الجديد.

وبذلك كانت الخطابة أخطر الوسائل التعبيرية التي واكبت نزعةَ الحرية التي استشرت في أوصال الناس عندما أرادوا التعبيرَ عن

---

[83] حنا الفاخوري، مرجع سابق، صفحة 69.

مكنونات أنفسهم. وكانت الحرية قيمةً أساسية بَسَطَتْها نصوصُ القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ورعتها الدوائرُ القيادية كمحورٍ للتحدي لم يكن مُتوقعاً في ظل الكبت والتسلط الذي مورس في معظم الدول المجاورة للدولة الإسلامية آنذاك. حيثُ كانت تجربة الإمبراطوريات الأوربية، والسلطنات الآسيوية، والملكيات المتسلطة في بلاد فارس وروما القديمة مدعاةً لأن يتشكك الناسُ في بسط مثل هذه الحرية في جزيرة العرب.

ولكنها حدثت على كل حال بحكم أنَّ الدين قد نبعَ من حاجة الإنسان الفطرية لأنَّ الإسلامَ نفسَه هو دينُ الفِطرة الذي يولد عليه الإنسان كما جاء في حديث النبي ﷺ: **(كلُّ إنسانٍ يولدُ على الفطرة ولكنَّ أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه)** [84].

وكانت النتيجةُ أن أفضت هذه الحريات الواسعة التي بسطها الإسلام إلى نزوع الناس للتعبير عن خلجات أنفسهم دون خوفٍ أو أو وجلٍ أو حتى مجرد التردد في طرح مكا يشاؤون. واتجهت القياداتُ الفكرية التي اهتدت بهذه الحرية إلى مقارعة الحجة بالحجة في كل ما يَعِنُّ لها من آراء أو أفكار، وطرح هذه الآراء، وتبادل هذه الأفكار التي نتجت عن تنازع المبادئ والمنافسة الساخنة بين المذاهب الفكرية التي ظهرت لاحقاً. وكان كلُ ذلك مادةً للخطابة جعلها العنصر

---

[84] أخرجه البخاري ومسلم عن حديث يحيى بن يحيى رضي اللهُ عنهما.

الأوحد للتغيير الاجتماعي[85]. وكان من أسباب هذا الازدهار الخطابي أنَّ الاتصال قد أصبحَ ضرورةً وسِمةً مميزة للمجتمع الإسلامي بحكم تفرد البيئة التي ظهر فيها. لذلك كان المنبرُ بمثابة جهاز الإعلام المتكامل والمؤثر في المجتمعات الإسلامية القديمة، حيثُ أصبح لسان حال الدولة.

وجعل هذا التفرد من المنبر أداةً لبث الأخبار والمعلومات والسياسات الجديدة، حتى أصبح الخطيب بمثابة المخبر الصحفي الذي ينشر الأخبار، ثم يعلق عليها، ثم ينقل رد الفعل إلى القادة السياسيين.

وقد ظهرت من خلال هذا الدور الإعلامي منابرُ اشتُهرت على مرِّ الدهور وخطباءُ مُفوهون اعتُبروا أجهزةً للإعلام ودعاةً للتوجيه، ومنهم: **(قَسُّ بن ساعدة)** و**(أكثم بن صيفي)** و**(المأمون الحارثي)**.

وبنفس القدر الذي أصبح فيه خطباءُ اليونان قادةً في قومهم أصبح الخطباءُ المسلمونَ سادةً بين أهلهم. إلا أنَّ خطباء المسلمين كانوا أكثر إيجابيةً من اليونانيين، حيثُ برزت بينهم العديدُ من سماتِ الإيمانِ وصِدْقِ القول.

---

[85] زين العابدين حاج عبد القادر، (1979م)، مذكرة في تاريخ الأدب العربي (القسم التوجيهي)، وزارة التربية، كوالا لمبور، ماليزيا.

ثم ظهرت بينهم تلقائياً بعضُ الصفات الفيزيائية والنفسية التي أصبحت عنصراً مكملاً لم يستطع الخطباءُ صعودَ المنابرِ دُونَها ومنها قوةُ الصوت، ورباطةُ الجأش، وفصاحة اللسان، وحُسن السمت، إلى جانب جمال الهندامِ والمظهر العام.

وظهرت أهميةُ هذه العناصر عندما ظهر التنافسُ الشديدُ لكسب جمهور المعجبين تماماً كالمطربين والممثلين المشهورين في زماننا الحاضر. وكان الناسُ يتقاطرون ويتداعون للاستماع للخطب التي تُعلنها دوائرُ المدينة بما لديها من أساليب الإعلان بغرضِ حشد الناس.

وعندما يأخذُ القومُ أماكنهم يظهرُ الخطيبُ الذي يقفُ إما على ربوةٍ عالية أمامَ جمهوره أو على منبرٍ إن كان داخل مسجد، وفي الحالينِ يُمسكُ بسيفٍ أو عصاً أو قوسٍ حَسْبَ الظروف. حيثُ كانت العصا لأيام السلم، والقوس والسيف لأيام الحرب تأسياً بالنبي ﷺ الذي اعتمَدَ على قوسٍ عندما صعد المنبرَ في أيامِ الحرب وعلى عصا في أيامِ السِلْم [86]. ثم يبدأُ الخطيبُ في إلقاء خطبته التي يحشدُ لها كلَّ مواهبه التعبيرية ومَلَكاتهِ البيانية.

وكان معلوماً لدى الخطباء أنَّ دورهم لن يكتمل ما لم يصلوا من خلال التعبير إلى التأثير في كل الجموع المحتشدة من البشر.

---

[86] المرجع السابق، صفحة 5.

ولذلك كان معظمُهم يؤدون خُطبهم الارتجالية بلا مُعاناةٍ أو إعياءٍ في الحديث الذي أصبحَ صنعةً لهم. وهم في كل الظروف يستلهمون المعاني الحيةَ من الجمهور مباشرةً حيثُ تنداحُ كلماتهم وأفكارهم في شكلٍ انسيابيٍ مُنظم ومرتب ترتيباً دقيقاً فرضته طبيعةُ هذا الفن وغذته سنواتُ الخبرةِ الطويلة والتخصص.

ولهذه الأسباب وغيرِها سيطر الخطباءُ على عقولِ الجماعات، فأصبحوا يقيمونها ويقعدونها كيفما شاءوا، خصوصاً في المجتمعات الشورية التي لعبَ الخطباءُ فيها الدور الأكبر في ترجيح كفة القرار.

المناظرات والمحاورات والوصايا

انتقلت الأشكالُ الخَطابية من صدر الإسلام إلى العهد الأموي الذي اشتهرت خطابتُهُ بمسمياتٍ مختلفة مثل: **(المناظرات، والمحاورات، والوصايا)**. وبرزت بشكلٍ أكبر الخطابة السياسية التي افتنَّ بها الخطباءُ الأمويون وافتتنوا بها أيما افتتان. ونشطت نتيجةً لذلك القصص وأحاديثُ الوعظ الديني التي لم تجتمع بهذا الشكل للخطابة اليونانية ولا للخطابة الجاهلية، ولا حتى للخطابةِ التي نشطت لاحقاً في البلاد الغربية.

ولهذا يصح أنْ نعتبر هذه الفترة الإسلامية نموذجاً متكاملاً للخطابة الإنسانية ودورها الاتصالي والدعوي. حيثُ علا شأنها بفضل

هذا الدور في بث الدعاية السياسية بتهديد الخارجين على القانون، والحملات الضارية على المناوئين والخصوم، والتي نجحت الخطابةُ في تحقيقها بحكم تنامي بُعدِها الاتصالي في هذا العصر. وكان وجودُ الأحزاب السياسية التي تعددت من **(أمويين)**، و**(زبيريين)**، و**(خوارج)**، و**(شيعة)** قد أعطى بُعداً إضافياً أسهم في تطور دور المنبر في هذه المرحلة.

وكانت الدعاية الإعلامية في هذه المرحلة قد قامت على شقين، شق للناطقين باسم الأحزاب، وشق للعصبيات المذهبية. ورغماً عن أنَّ العصبياتِ المذهبية هي التي أدت إلى نشأة الأحزاب السياسية في معظمها إلا أن بعضها ظلَّ بمنأى عن الأحزاب القائمة، وحركته نزعة العِرق والإرث القبلي القديم الذي حاربه الإسلامُ حرباً شعواء.

ولهذا احتدمت التناقُضات والمفاخرات بين الذين انطلقوا من هذه المحاور الثلاثة والتي كان أبرزها ما وقَعَ بين **(اليمانية)** و**(المضرية)**، وبين **(العرب)** و**(الموالي)**. كما برز الجدلُ المذهبي بصورةٍ أكبر في مُنازعات **(الشيعة)** و**(الخوارج)**.

وكانت الخطابةُ في كل هذه الصراعات هي الأداةَ الإعلاميةَ والدعائية الأولى لنصرة فريقٍ على فريق، ودحضِ الادعاءات المناوئة. ولذلك كان الشكل الإعلامي في هذه المرحلة مستنداً على مادة الوعد والوعيد التي خدمت أطرافَ النزاع، كما خدمت أنظمة

الحكم السياسية القائمة بتقريع الخارجين على النظام وردهم إلى الطاعة، وإخماد نيران الفتن. وكانت مساحة الحرية الواسعة في الدولة الأموية قد أدت إلى اتساع دائرة التعبير عن الرأي والجهر به أمام الناس من خلال سلسلة الخطباء الذين برزوا في كل المدن بلا استثناء.

ولم يكن هناك بُدٌّ من كثرة الخطب التي أملتها كثرةُ الأحداث السياسية والدينية وتلاحقها. ولأنَّ الخطابة كانت هي الوسيلة الوحيدة لبث الأخبار والمعلومات وتثقيف الجماهير فقد قامت مقام الصحافة والإذاعة والتلفزيون والإنترنت في عصرنا الحاضر.

ومن أهم الأسباب التي كفلت لها ذلك الدور المؤثر خُطبة **(معاوية بن أبي سفيان)** مُؤسسِ الدولة التي أعلن فيها منذُ الوهلة الأولى لتسلمه مقاليد السُلطة في البلاد بأنه يسوس الناس بالحِلْمِ، وسعةِ الصدر، والتجاوز عن السيئاتِ، حيثُ قال:

«وإن لم يكن إلا ما يشتفي به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذني وتحت قدمي» [87]. وقد تذرع بذلك الحِلْم في كثيرٍ من الأوقات حتى مع معارضيه الألداء. ثم جاراه بعدَ ذلك معظمُ خلفائه الذين تحملوا كثيراً من العنت في سبيل تنفيذ هذه السياسة. وكانت النتيجةُ أنْ جعلَ الحُكامُ الأمويون واحداً تلو الآخر من الخطابةِ وسيلةً

[87] أنظر محمد أبو زهرة، مرجع سابق صفحة 104.

للاتصال بينهم وبين الرعايا المنتشرين في أرجاء الدولة الواسعة، وذلك عندما تيقنوا من اتخاذ الناس لها كوسيلةٍ أولى للمعرفة لم تُضارعها وسيلةٌ أخرى. ثُم لدورِها المتعاظم الذي ظهر جلياً في حياة القبائل والأفراد على السواء.

ثُمَّ إنَّ المنبر قد لعب دوراً هاماً أيضاً في هذه المرحلة، وهو إثراءُ العملِ السياسي الذي انعكس في تطور النشاط الحزبي. حيثُ استفادت الأحزابُ من حجم الحريات المتاحة بحكمِ أنَّ أحزابَ الدولةِ الإسلامية قد تمتعت بحريةٍ أكبرَ بكثيرٍ من تلك التي كانت تُمارس في بلاد أوربا المختلفة.

ولم تكن للحكومة أيةُ سيطرةٍ عليها رغم محاولات الحكام لاحتوائها وانتقادها بشكلٍ مستمر بسبب التنافس السياسي. ولكنَّ تلك المحاولات تمخضت هي الأخرى عن نشاطٍ خطابي أقوى وأكثر تَمَيُّزاً في الدولة، حيثُ أُفْسِحَ المجالُ للعديد من الأصوات الجديدة والمواهب أنْ تظهر من خلاله.

ساعدَ على ذلك أنَّ كثيراً من الأحزاب السياسية والطوائف قد عاشت في مواطن متفرقة بعيدة عن عيون الحكام. ثم إنَّ كثيراً من المنتمين إليها لم يكونوا يخشون إعلانَ آرائهم على الملأ وقتما أرادوا. وفي خطبة **(عبد الله بن الزبير)** أمام **(معاوية بن أبي سفيان)** حينما أراد البيعة لإبنِه **(اليزيد)** نموذجٌ لهذه الحرية. ولم تكن شجاعةُ التعبير

من خلال المنبر أو الخُطب العامة مَقصورةً على القادة الدينيين أو السياسيين أو الزعماء الحزبيين وحدهم، بل شهدت بها كثيرٌ من المواقف حتى بين أعراب البادية، حيثُ وقفَ أحدُهم أمام **(معاوية بن أبي سُفيان)** متحدثاً بشيءٍ يكرهه، فقال له معاوية: «**كذبتَ أيها الأعرابي**»، فرد عليهِ الأعرابيُّ على الفور: «**بلِ الكاذبُ واللهِ مُزَّمِلٌ في ثيابِكَ**».

وحصبَ بعضُهم **(المغيرة بن شعبة)** وهو على المنبر والياً من قِبَلِ **(معاوية بن أبي سفيان)**. وتندر كثيرٌ منهم بشخصية **(الحجاج بن يوسف)** عندما صعد المنبر ليخاطب الملأ، حيثُ قالوا له بعد الفراغِ من خطبته: «**إنْ صدقناك أرضينا الله، وإن غششناك أغضبنا الله، فغضبُك أهونُ علينا من غضبِ الله**».

وقال بعضهم في حضرة القائد **(عبد الملك بن مروان)** وهو يخطبُ على منبره داخل المسجد: «**إتق الله يا عبدَ الملك**» [88]، وكانت كلمةً جارحةً وقاسية في حق عبد الملك الذي أحسَّ من خلالها بأنَّ للقومِ رأياً سالباً فيه وقد أرادوا أن يُفصحوا عنه، إلا أنَّ حُرمة المنبر وقدسية المسجد جعلته يصبر على أذى العبارة ويكتمها بين جنبيه دون الرد على قائليها. اشتَدَّ بأسُ المناوئين للخلفاء في فترة بني أمية ومنهم: **(عبد الله بن الزبير)**، وهو خطيب مفوه استخدم المنبر لتنفيذِ

---

[88] أنيس المقدسي، مرجع سابق، صفحة 99.

أغراضه الفكرية والسياسية، وشاركه أخوه **(مصعب بن الزبير)** الذي كان من أشهر خطباء عصره، وبجانبهما الولاة من أمثال: **(زَيَّاد بن أبيه)**، و**(الحجاج بن يوسف الثقفي)**، و**(قُتيبة)**، و**(مُسلِم)**، و**(الحسن بن علي)**، و**(سحبان بن وائل)**، و**(قطري بن الفجاءة)**، و**(عمران بن خطبان)**، وغيرهم.

وفي هذا العصر لم يقتصر الاهتمامُ بالخطابة على الشبان، وإنما كان الكهولُ أيضاً يتبارون في مضمارها، ويتسابقون في ميادينها الواسعة. وقد نشأ من هذا التنافس أن ظهرَ أُناسٌ يُعلمونَ الشبان الخطابة ويمرنونهم عليها مثلما حدث في الدولة اليونانية القديمة.

وقد ظهر ذلك أيضاً طوالَ العصر العباسي الأول، حيثُ جاء في **(البيان والتبيين)** للجاحظ [89]، وفي **(العقد الفريد)** لابن عبد ربه أنَّ **(بِشْر بن المعتمر)** مرَّ بالأستاذ **(إبراهيم بن جبلة)** وهو من أصحاب عبد الملك بن مروان وقد كان يُلقي دروساً في الخطابة على بعضِ الفتيان، فقال لهم بِشْر: «**أضربوا عما قاله لكم هذا الأستاذُ صفحاً واطووا عنه كشحاً**»، ثم دفع إليهم صحيفةً من إعداده بها وصفٌ ممتاز لأساليب الخطابة ومعانيها. وقد أورد الشيخ أبو زهرة هذه الحكاية مستدلاً بها على أنَّ بداية استنباط قواعد الخطابة قد كان

[89] أنظر الجاحظ، 33/2، البيان والتبيين، طبعة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، من صفحة 66 إلى صفحة 113.

في أواخر العصر الأموي[90]. وكان الجاحظ قد أشاد كثيراً في كتابه **(البيان والتبيين)**[91] بقدرة العرب الخطابية للدرجة التي جعلته يفضلهم على جميع الأمم حتى الفرس واليونان. وقد انتقد بعضُ الأساتذة والكُتَّاب ذلك التفضيل رغماً عن قناعتهم بدور الخطابة لدى العرب، ومن بينهم الأستاذ الدكتور **(شوقي ضيف)** الذي أشار في انتقاده إلى أنَّ الجاحظ مُحِقٌ في تفضيلِهِ للعرب على الفرس.

أما اليونان فمن المعروف أن الخطابة بأنواعها السياسية والقضائية والحفلية نشطت عندهم نشاطاً واسعاً، وأنه قد اشتهر بينهم أكثرُ من خطيب أمثال **(ديموستين)**، وقد تتوج ذلك النشاطُ الخطابي بكتاب **(الخطابة)** الذي وضعه **(أرسطو طاليس)**.

ومضى الدكتور شوقي ضيف في انتقاده للجاحظ متهماً إياهُ بأنه لم يكن يعرف شيئاً من ذلك، ولذلك قدَّمَ الفُرس أيضاً على اليونان في الخطابة رغم أنهم يتخلفون عنهم وعن العرب جميعاً في مضمار هذا الفن[92]. ولعلَّ الدكتور شوقي قد أصابَ في تأكيده لتفوق اليونانيين على الفرس، ولكنْ أن يصلَ به الأمر إلى حد اتهام

---

[90] محمد أبو زهرة، مرجع سابق، صفحة 11.

[91] أنظر الجاحظ، المرجع السابق 33/2، صفحة 115.

[92] شوقي ضيف، (1963م)، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، صفحة 405.

(الجاحظ) بأنه (*لا يعرفُ شيئاً من ذلك*) فنحسبُ أنَّ فيهِ تجوزاً إن لم يكن تطاولاً. وأغلب الظن أنَّ هذه المقولة ليست بهذا الشكل المنسوب للجاحظ الذي كان أعلم وأفقه أهل زمانه بتاريخ الإغريق والفرس والمسلمين وبفنون الخطابة وتاريخها وأشكالها، مما جعله يتحدثُ عنها بعمقٍ في واحدٍ من أبرز الكتب التي عرفها التاريخ الإسلامي **(البيان والتبيين)**، فيمكن للقارئ مُطالعته للتأكد من ذلك.

لقد ظهرَ دورُ المنبر الاتصالي بشكلٍ واضح طوالَ العهدِ الأُموي، وكَثُرَ الخطباءُ والقصاصون في هذا العهد، إلا أنَّ بعضهم قد مَزَجَ القَصَصَ بتفسير آيات القرآن الكريم وبعض آثار الكتب السماوية السابقة. وقد أُعجِبَ الناسُ بتلك القصص والروايات التي كانت جديدةً عليهم في معظمها.

إلا أنَّ بعض القصاصين قد بالغوا في طرحهم وزادوا فيها ما يشاءون. وكانت النتيجةُ أنْ نَفَرَ العديدُ من الزهاد والنُساك من أولئك القصاصين الكاذبين، وانتقدوا بشدة الخليفة **(معاوية بن أبي سفيان)** وخلفاءه عندما استخدموا بعضهم للدعاية والازدراء على الخصوم وفرضوا لهم رواتب ومكافآتٍ شهرية. وكان عدد من هؤلاء الخطباء والقصاصين قد انخرطوا في أوساط الجيوش ليعظوها.

وقد أورد **(أبو جرير الطبري)** كثيراً من النصوص الدالة على ذلك، ومنها عِتاب **(ابن ورقاء)** حين نازَلَ **(شبيب الخارجي)** الذي

كان يقص مثل تلك القصص على جنده بغرض تحميسهم للقتال. كما تحدث **(قتيبة بن مسلم)** في خراسان عن واعظِ جُندِه **(محمد بن واسع الأزدي)** الذي اشتُهر بورعه وتنسكه في العبادة، وسرد كثيراً من مواقفه وعباراته التي تدل على ما ذهبنا إليه.

ولم يكن ذلك الأمر قاصراً على جيوش الحكومة، بل كان الخوارج أيضاً يفعلون نفس الشيء. حيثُ كان من كبار قُصاصهم **(صالح بن مسرَّح الصُفْري)** الذي كان يعظ القوم ويقص عليهم القصص التي حملَ فيها كثيراً على بني أمية ومَنْ والاهم من الجماعات السياسية. حتى إذا بلغ من إثارة أصحابه في الجزيرة والموصل ما أراد خرج على **(الحجاج بن يوسف)** وقُتِل، فخلفه **(شبيب)** الذي دوَّخ جيوش الحجاج طويلاً [93].

كما فعلَ أصحابُ الثوراتِ نفسَ هذا الشيء تقريباً ومنهم: **(جهم بن صفوان)** الذي أبلى كثيراً في فتنة **(الحارث بن سريج)** في خُراسان[94]. ولعلنا إذا تأملنا هذه النقطة لأدركنا تماماً أنَّ الخطابة المنبرية قد كانت وعاءاً اتصالياً سبقَ قنواتِ الاتصال الحديثة التي أسهبت هي الأخرى في سرد وتقديم مثل هذه القصص، والفارق الوحيد

---

[93] المرجع السابق، صفحة 412.

[94] الطبري 6/ 3، في تاريخ الأدب العربي، لشوقي ضيف، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، صفحة 409.

بينهما أنَّ قنوات الاتصال الحديثة قد قدمتها في قوالب سينمائية أو مسلسلاتٍ إذاعية أو تلفزيونية، في حين قدمها خُطباءُ المسلمين الأوائل في قوالب سردية خَطابية مُشوقة من فوق المنابر.

وفي تلك البيئة ظهرَ نضوجُ العقل المسلم بما أثاره الخطباءُ والمعلمون من معلومات استقوها من الثقافات الأجنبية. فظهرَ جدلٌ كثيرٌ حول مسائل العقيدة وعلى رأسها ارتباط الإيمان بالعمل، وهل يُعَدُّ المسلمُ مؤمناً وإنْ لم يُؤدِ الفروض؟ ثم مسألة الإرادة وهل الإنسان مُخيرٌ أم مُسير؟ وقضية صفات الله هل هي عينُ ذاتِهِ أم أنها شيءٌ غيرُ ذلك؟ وسرعان ما تكونت فِرَقٌ للرد على هذه المسائل الجدلية ومنها: **(الجبرية)**، و**(المرجئة)**، و**(القدرية)**، و**(المعتزلة)**.

وكان الجدالُ قد أفضى لقيام مُناظراتٍ ساخنة فيما بينها، خصوصاً عندما حشدت المنابر لتلك المناظرات أدلةً نقليةً ولفظيةً من القرآن والسنة وأدلةً عقليةً دارت في إطار البرهان والمنطق. ولم تكن هذه الفرق قد تجادلت فيما بينها فحسب، بل ظَلَّتْ في حِوارٍ مستمر مع أصحابِ الديانات السماويةِ الأخرى وغيرهم من أصحاب العقائد البشرية التي لم ينزل بها كتابٌ سماوي.

وقد استعان البعضُ في جدالهم بالمنطق اليوناني وبالإشارات الفلسفية التي استقوها من الإغريق ومن الثقافات الأجنبية الأخرى. وعلى ذلك النحو برز **(عِلْمُ الكلام)** في عصر بني أمية، وانبثقت منه

صورُ الخطابة الجدلية التي أصبحت صِنواً لصور الخطابة السياسية والدينية والاجتماعية التي أثرت المنابر أكثر من الفترات التي جاءت لاحقةً لها [95].

وإلى جانب كل هذه العوامل كانت الحروب والمناوشاتُ العسكرية قد لعبت دوراً هاماً في بروز المنبر كأداةٍ لِفَضّ المنازعات وبث الروح القتالية في الجنود. حيثُ كان القُواد والفاتحون قد اعتمدوا عليها كثيراً في تحميس جنودهم. وكان الثوار والقادةُ الفصحاء قد اتخذوها أيضاً وسيلةً ناجعةً لنيلِ المطالب.

وبما أنَّ المقدرةَ البيانية والبديهة المسعفة قد كانت سِمَةً غالبةً لكلِ خُطباء المنابر في ذلك العصر السليقي فقد كان الحرصُ شديداً على سلامة اللغة والفنون عامةً. كما كان الخلفاء والأمراء يُنشئون أبناءهم في البادية التي كفلت لهم أسلوباً تربوياً متيناً فيهِ الكثيرُ من المنافع التي أزكت نار الخطابة وعلى رأسها فصاحةُ اللسان.

ولعلَّ **(معاوية بن أبي سفيان)** قد توخى ذلك حينما بعث ابنه **(اليزيد)** إلى البادية عند أخواله **(بني كلب)** مع أمه **(ميسون)**. أما **(عبد الملك ابنُ مروان)** فقد قال عندما وجدَ أنَّ ابنه **(الوليد بن عبد الملك)** يَلْحَنُ في استخدامه لقواعد اللغة: «**أضرَّ بالوليد حُبُنا له، فلم**

---

[95] شوقي ضيف، مرجع سابق، صفحة 409.

نرسله إلى البادية»[96]. وإذا كان داءُ اللحنِ قد أثَّرَ على بعض الخطباء في ذلك العصر فإنه بلا شكٍ لم يكن ظاهرةً شائعة، وإنما كان ضئيلاً ومحدوداً للغاية، ولم يُفْسِدْ مَلَكَة البيانِ التي كانت حظاً مشتركاً لدى غالبية مَنْ يصعدون المنابر.

الاتصال من خلال الأشكال الخَطابية

بعد هذا السرد التفصيلي لدور المنبر وتطور الخطابة كأسلوبٍ اتصالي في العصور المختلفة نُشير فيما يلي إلى أشكالها التي ظهر من خلالها دورُها الحقيقي لخلق التغيير الذي اتسق مع أهداف علوم الاتصال الحديثة. حيثُ ظلت الخطابة أداةً طيعةً ومتاحةً في كل زمانٍ ومكان لمن أراد أن يوظفها لخدمة الأهداف التي يتوخاها ونيل المآرب التي تحتاج للحجة والبُرهان والمنطق. وفيه نتحدث عن كل الأشكال الخَطابية، حتى تلك التي قُدِّمَتْ خارجَ إطارِ المسجد بحكمِ أنَّ لها دوراً هاماً في إثراء خُطبة المسجد والتأثير عليها.

1. الخطابة السياسية:

هي الخطابة التي تناولت شئونَ الحكم ونظام الدولة وأحوالها العامة. وهي التي استخدمتها الحكوماتُ في توجيه رعاياها إلى بعض

---

[96] حنا الفاخوري، مرجع سابق، صفحة 186.

السياسات التي فرضتها إبَّان نشأة الدولة الإسلامية. وقد شملت العديدَ من الأمور الرسالية التي تأرجحت بين بسط السياسات الخارجية والشئون الداخلية للأفراد.

وكانت معظمُ القضايا التي تناولتها الخطابة في هذا الإطار قد تركزت على ما تريده الدولة من رعاياها بغرضِ النهوض بمؤسساتها ورفاهية مواطنيها والصلح مع الدول التي بينها وبينها مناوشاتٌ أو خصومات.

كما ظهرت من خلال رؤى القادة الثوريين والمفكرين السياسيين. واستمرت طوال العهود حتى خرج في عصرنا الحاضر بعضُ القادة الذين خلدت خطبهم مثل الزعيم المصري **(جمال عبد الناصر)** وخطبته في تأميم قناة السويس، والقائد الأمريكي المسلم **(مالكولم إكس)** Malcolm X عندما أراد أقناعَ الأمريكيين البيض بضرورة تغيير سلوكهم في معاملة المسلمين والملونين من الأمريكيين، والتي حشد لها طاقاته الإبداعية وملكاته الخطابية بشكلٍ جذب إليه حتى البيض.

وكذلك الزعيم **(إسماعيل الأزهري)** في خطبته التي ألقاها في البرلمان لجلاء المستعمرين البريطانيين عن السودان في عام 1955م. ومن غير المسلمين خطبة زعيم حركة حقوق الإنسان الأسود **(مارتن لوثر كنج)** التي أطلق عليها الناسُ اسماً من مقدمتها

(**عندي حُلُمْ** I have a dream) بحكم مقدمتها التي بدأت بتلك العبارة. وبذلك أصبح الدورُ الاتصالي لهذا الشكل الخطابي واضحاً من خلال تأثيره على مجرى التاريخ.

2/ الخطابة القضائية:

وهي التي تعودَ الناسُ على إلقائها في ساحات المحاكم لطلبِ الحكم في الأمور محل الخلاف. وهي تختلف باختلاف المحاكم التي تُلقى فيها وباختلاف شكل القضية المطروحة، حيثُ يقومُ المحامون ووكلاءُ النيابة بدور الخطيب في هذا الشكل الخطابي [97]، وتكون قيمتها الاتصالية في مقدرتها على توجيه مسار القضية.

3/ خطب المفاخرة والمنافرة:

وهي الخطب التي شاعت في الجاهلية، وكانت ضروريةً بحكم طبيعة المرحلة البدوية التي اتخذتها أداةً لحفظ الكيان وتأليف القلوب في إطار القبيلة. وحاول الإسلام أن يُزيل هذا الشكل من أشكال العصبية، إلا أنه استعصى في بادئ الأمر. ولكنْ لَفَظَهُ الناسُ تدريجياً بعد ذلك عِندَما تشربوا بروح العلاقة الجديدة التي أرساها الدين. واختفى هذا الشكلُ إلا من نماذج متفرقة كان أشهرها ما قام به

---

[97] المرجع السابق، صفحة 45.

(عبد الله بن الزبير) و**(عبد الله بن عباس)** عندما اشتدت الخصومةُ السياسيةُ بينهما. كما كان العديد من خطباء المعارضة بعد دولة الخلافة الراشدة قد دعوا في خطبهم للانتقاص من بني أمية من خلال تقريعهم وانتقادهم اللاذع، وقابلهم أنصارُ الأمويين بخطبٍ أكثر التهاباً صوروا من خلالها خروج الأمويين على الجماعة، وضلالهم وحيدتهم عن جادة الطريق.

وظهرتْ العديدُ من الخصومات القبلية مثل خصومة **(قيس وتغلب)** التي ناصرت فيها القبائل اليمنية قبيلة تغلب في الشام والجزيرة. وكذلك خصوماتُ **(تميم والأزد)** في البصرة، ومعارك **(خُراسان)** التي اختلط فيها عنصرا السياسة والرباط الإثني [98].

وفي العصر الحديث لجأ إليها الزعيمُ الراحل **(محمد أنور السادات)** لتفنيد مواقف خصومه من الزعماء الذين انتقدوا سياسته وقطعوا علاقاتهم الدبلوماسية مع مصر بعد زيارته الشهيرة للقدس وتوقيعه لاتفاقيات كامب ديفيد. ومنها خطبة رئيس الوزراء الماليزي **(محاضير محمد)** بجامعة أوكسفورد بالمملكة المتحدة في أبريل 1996م أمام قادة الفكر الأوربي بعنوان **(الإسلام الذي أُسيءَ فهمُه)** والتي لعبت دوراً كبيراً في إفهام القادة الأوربيين وجهة نظر المسلمين تجاه رأيهم في الإسلام.

---

[98] شوقي ضيف، مرجع سابق، صفحة 407.

4/ خطابة الوفود:

ظهر هذا الشكلُ من الخطابة مع بداية ظهور الإسلام عندما نشطت حركة الوفود إلى النبي ﷺ بغرضِ إعلان إسلامهم، حيثُ كان القادمون يخطبون أمامَ النبي ﷺ خُطباً عصماء تلونت بألوانِ الرفق واللين في كثيرٍ من الأحيان، والشدة والعنف في بعضِ الأحيان. ولكنها سارت في معظم الأحيان على خطة الإيجاز والإذعان للدين الجديد، والتعبير عن الرضا بما طرحه من إصلاحٍ لأمور الحياة.

وقد سميت خطب الوفود لطبيعتها المصاحبة لقدوم الوفود الخارجة من ضلال الشرك والوثنية إلى رحاب الدين الجديد. وليسَ لها مثيلٌ في العصر الحاضر بحكم انتهائها بانتهاء مرحلة صدر الإسلام.

5/ خطابة الحفلات:

وهي التي تُلقى عند اجتماع الناس في المحافل العامة للتهنئة أو التعزية أو المفاخرة أو أي شكلٍ من أشكال الاحتفالات التي كثرت في الدولة الإسلامية. واستمر هذا الشكلُ طوالَ العصور الإسلامية وظلَّ إلى اليوم في بعض البلاد كالعراق ونيجريا والسودان وموريتانيا. حيثُ بقيت منه خطب المآتم التي تُلقى عند وفاة الشخصيات البارزة والمؤثرة في بلادها ومثالٌ لها الخطبةُ التي ألقاها الزعيمُ الديني (**محمد**

عثمان الميرغني) في وفاة الزعيم السوداني الراحل **(إسماعيل الأزهري)** في عام 1970م.

6/ خطابة الاستخلاف والولاية:

ظهر هذا النوع من الخطابة في الدولة الإسلامية عند مبايعة خليفة أو تولية والٍ أو عامل على أحد الأمصار. واستمرت إلى اليوم في البلاد الإسلامية وغيرها من البلاد التي وجدت فيها أسلوباً مناسباً لطرح سياسات الزعماء الجدد. وهدفُها الأساسي هو توضيحُ السياساتِ الجديدة التي يتبناها الزعيم ويريد أن يلتف الناس حوله لتنفيذها. وقد يكون هدفها استعراض القوة أو تسكين فتنةٍ نشبت بين الموالين والمناوئين له من الجمهرة المواطنين الخ...

وقد تميز هذا الشكلُ الخطابي بالقوة والصرامة في معظم الأحيان. حيث يلجأ الخطيبُ لهذه القوة والصرامة لتحقيق عدة أشياء في وقتٍ واحد، ومنها ما أسلفنا إلى جانب تثبيتِ الهيبة والخشية في نفوس المواطنين تجاه الزعيم الجديد. وهي دائماً حافلةٌ بروح الرهبة التي تبعث الهول في النفوس. ولئن كانت خطب **(أبي بكر الصديق)** و**(عمر بن الخطاب)** وغيرهما من الخلفاءِ الراشدين مليئةً بالرِفْقِ والرحمة فقد كانت خطبة **(زياد بن أبيه)** حين وُلّيَ البصرة، وخطبة **(الحجاج بن يوسف)** بالعراق نفيرَ صِدامٍ ونذيرَ عُنفٍ منذُ البداية.

7/ خطابة الفتوح:

وتسمى الخطابة الحربية لأنها تُلقى في ميادين القتال بغرض إثارة الحماسة في الجنود. وهي خطابةٌ عسكرية اعتمدت على الشجاعة وقوة البأس والإشادة بالنصر. ومن أشهرها خطبة (**عُتبة بن غزوان**) بعد فتح الابلة في عهد عمر بن الخطاب، وقد قال فيها:

[أما بعد فإنَّ الدنيا قد تولت حذاء مدبرة، وقد آذنت أهلها بصرمٍ، وإنما بقي منها صبابةٌ كصبابةِ الإناء يصطبها صاحبها، ألا وإنكم مفارقوها لا محالة، ففارقوها بأحسن ما يحضركم].

ومن خطابة الفتوح أيضاً خطبة (**طارق بن زياد**) عندما هاجم الأندلس وهي مشهورة في العديد من مراجع التراثِ العربي، وأيضاً خطبة (**ابن نباتة الفارقي**) التي حث فيها العرب على محاربة الروم وهزَّ منابر حلب والموصل في عهد (**سيف الدولة الحمداني**) من خلال استثارة الحمية واستنهاض الهمم، وسوق الناس لتغيير مفاهيمهم لتتماشى مع الشيء الذي يريده لهم.

واشتهر من النساء في هذا المجال (**عكرشة بنت الأطرش**) في موقعة صفين، حيثُ قامت تحض الناس على قتال معاوية بن أبي سفيان بلهجة شديدة جاء فيها: **[أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديتم. إنَّ الجنة لا يرحل من أوطنها، ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا**

تنصرم همومها، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم] [99].

8/ خطابة المناظرة:

وهي الخطابة التي جرت بين أطرافٍ متناقضة عندما اشتد النزاعُ والخلاف بينها. وأقربُ مثالٍ لها ما حدثَ بين أمير المؤمنين **(علي ابن أبي طالب)** و**(معاوية بن أبي سفيان)**، ثم بين أهل العراق وأهل الشام. وأشهر ما قيلَ فيها خُطبةُ الإمام **(علي كرم اللهُ وجهه)** في الخوارج عندما خاصموا رسولَهُ إليهم **(عبد الله بن عباس)** [100]، حيثُ ورد فيها الكثيرُ من سحر البيانِ وقوة الحُجة وجمال العبارة التي اشتُهرَ بها الإمام علي. وهذا الشكلُ تبنته الأمم الحديثة خصوصاً الدول الغربية التي جعلته أحد عناصر حملاتها الدعائية في مواسم الانتخابات.

9/ خطابة العبادات:

وهي تتمثلُ في خُطبة الجُمُعة وخطب العيدين التي تقومُ على الوعظ والإرشاد وتعليم أمور الدين والحياة. كما كانت مصدراً هاماً من

---

[99] السيد أحمد الهاشمي، مرجع سابق، صفحة 49.

[100] حنا الفاخوري، مرجع سابق، صفحة 143.

مصادر الأخبار في دولة المدينة [101]. وقد تميزت هذه الخطابة بروح الورع، والاعتماد على صدق العقيدة، وخلوص النية للدين، والحض على الأخلاق السامية. وظلت لها أصداءٌ بعيدة في نفوسِ المسلمين طوالَ تاريخهم بحكم ارتباطها بالعبادة. وقد تأسى فيها الجميعُ بخطب النبي الكريم ﷺ ومحاولة مجاراته في المعاني التي استخدمها والرؤى البديعة التي وضعها للناس بغرض استمالتهم، ثم برع فيها من بعده الإمام (**علي بن أبي طالب**) رضي اللهُ عنه أثناء خلافته وقبلها، حيث ظل علماً بارزاً يُشار إليه بالبنان[102].

وخلال العصور الإسلامية المختلفة برز عددٌ من الخطباء منهم (**الإمام الباقلاني**)، والشيخ (**أبو اليزيد البسطامي**)، ثم الإمام الشهيد (**حسن البنا**)، وتلميذه الأستاذ (**سيد قطب**)، ثم إمام مسجد حدائق القبة الشيخ (**عبد الحميد كشك**)، وزعيم أنصار السنة المحمدية بالسودان الشيخ (**أبو زيد محمد فضل الله**)، وزعيم الحركة الإسلامية الحديثة الشيخ (**حسن عبد الله الترابي**)، ومفتي الديار السعودية الراحل الشيخ (**عبد العزيز بن باز**)، والإمام الشيخ (**حسن الباقوري**)، والأستاذ (**أحمد ديدات**)، وغيرهم.

---

[101] أحمد المزعنن، (1410هـ)، مصادر الأخبار في العهد المدني، دار صبري، الرياض، صفحة 77.

[102] محمد إبراهيم محمد إبراهيم، (1406هـ)، الجانب الإعلامي في خطب الرسول صلى الله عليه وسلم، المكتب الإسلامي ومكتبة شركة الخاني، الرياض.

الخطابة في العصر الحديث

من المعروف أنَّ الخطابةَ قد ضعفت كثيراً في نهايات القرن التاسع عشر نتيجة لضعف الأدب عموماً، وعدم وجود دواعيها التي تطلبتها في الماضي. وكان ظهورُ قنواتِ الاتصال الحديثة وارتباطها بالجماهير قد أدى إلى ضعف النزوع إلى الخطابةِ إلا في بعض الظروف. ولذلك اقتصرت في كثيرٍ من الأمصار الحديثة على الجانب الديني من خلال خطب الجمعة والأعياد الدينية.

ورغم أنَّ المسلمين في هذه المرحلة لا سيما في مصر وبلاد الشام وشمال أفريقيا لم يستخدموا الخطابة في غير الأغراض الدينية. إلا أنَّ دائرتها قد اتسعت في مرحلةٍ سابقة أيام الخديوي **(إسماعيل باشا)** الذي شجع على تطوير استخدام الأسلوبِ الخطابي الذي واكبَ ازدهارَ المساجد والمعاهد الدينية.

ولعل السبب في ذلك هو مُصادفَتُها لمجيء الشيخ العالِم **(جمال الدين الأفغاني)** إلى مصر، والتفَّ حوله كثيرٌ من الأدباء المصريين والسوريين واللبنانيين وغيرهم، وانخرطوا في جماعته الدينية والفكرية، فألَّفَ منهم مجموعاتٍ ظلَّت تتناوب على صعود المنابر في المساجد المختلفة بشكلٍ دوري. وبذلك عادَ للخطابةِ رونقُها وجمهورُها الذي كاد أن يندثر. وقد تناول جمال الدين الأفغاني وأصحابُهُ في خطبهم العديدَ من الأمور الدينية والسياسية والاجتماعية. وبفضلهم

ازدهرت المنابر في كل أنحاء مصر، وسوريا، ولبنان، ثم انتشرت العدوى في بقية البلاد الإسلامية المجاورة لهم. ومن هناك انتقل الأمرُ سريعاً للمنابر السياسية في قاعات البرلمانات والمحاكم. حيثُ ابتدأ حينئذٍ أسلوبُ النقدِ السياسي للحكومات. واستفاد الخطباءُ من الحصانة البرلمانية التي تمتع بها النوابُ دستوياً فقالوا ما يشاءون دون مُحاسبةٍ أو وجل.

ولكن عندما جاء الزعيمُ الثوريُ المصري **(مصطفى كامل)** اتجه بالمنبر وجهةً سياسيةً حاول من خلالها أن يعيد للمصريين والمسلمين والعرب عامةً ثقتهم بأنفسهم بعد سنوات الاستعمار الطاحنة. ولعله قد نجح في ذلك كثيراً بحكم الأرضية الممهدة للمنبر في البلاد الإسلامية وعلى رأسها مصر.

بعد ذلك ظهرت الحياةُ النيابيةُ التي شهدت كثيراً من الصراعات السياسية بين الطوائف والأحزاب المختلفة، فقوي نفوذ الخطابةِ مرةً أخرى حتى خارج إطار المساجد ولكن بشكلٍ تدريجي. وأصبحَ لكلِ حزبٍ خطباؤه الضليعون في المحافل العامة وداخل المجالس النيابية كمجالس الأُمة، والجمعيات التأسيسية، ومجالس الشعب وغيرها.

ولما استيقظت الخطابة حينئذٍ، وعظم شأنها أصبحت طريقاً أقصر لقلوب الجماهير في سباقها المحموم بميادين السياسة

والمجالس النيابية ودور القضاء. وعندها اتجه الباحثون إلى إحياء المقبور من قوانينها القديمة، ونفضوا الغبارَ عن آراء العلماء فيها بحكم أنها قد عادت للحياة من جديد.

وبدأ بعضُ الكتاب يُدبجون الصفحات بمدحِ الخَطابة والتأريخ لها، حيثُ خرجَ في بادئ الأمر كتابُ **(عِلم الخطابة)** للأستاذ الباحث **(لويس شيخو)** الذي جمع فيه خُلاصة ما كتبه الأدباءُ العرب والفلاسفة عن قوانين الخطابة وقواعدها وتاريخها. ورغماً عن الانتقاد الشديد واللاذع أحياناً الذي وُوجه به هذا الكتاب إلا أنه من الكتب الرائدة في هذا المجال، ولم يسبقه كتابٌ في العصر الحديث لتوضيح هذا الأمر أفضلَ منه [103].

وكنتيجة للتمازج الثقافي الذي تمَّ بين الشعوب في العصر الحديث اختفت العديد من المفردات القوية التي كانت تُستخدمُ في الخطابة وحلَّ محلها ما يمكن أن نسميه بالاستلاف التعبيري، وهو انتقال كثيرٍ من التعبيرات المستخدمة في اللغات الأكثر انتشاراً كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والفارسية وغيرها. ولم يحدث لها إلا بعض التحوير اللفظي أو الترجمة الحرفية. ورغمَ أنَّ الاستلاف قد

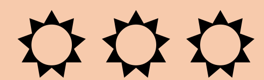
[103] كان أكثر العلماء انتقاداً لهذا الكتاب هو الأستاذ العلامة محمد أبو زهرة الذي قال إنَّ فيه كثيراً مما يتعلق بالمنطق رغم أنَّ مؤلفه قد وضعَه في الخطابة، كما أنَّ فيه جفافاً يجعله غير قريب للمتناول، وهو في أكثر المسائل لم يُقدم لنا رأيه بل يتركنا وسط نقولٍ وآثار.

أدخل مدلولاتٍ جديدة على لغة الخطابة إلا أنَّ أنصارَ التراث لم يُحبذوا هذا الاستخدامَ الذي اعتبروهُ تشويهاً وترهلاً لا داعي له. وتطورت تلقائياً خُطَبُ الدعايات الانتخابية التي أوضحَ الساسةُ من خلالها برامجهم وسياساتهم التي أرادوا طرحها على الناخبين، إلى جانب رؤيتهم للعمل النيابي.

وقد اشتهر هذا النوعُ من الخطابة وازدهر في عهد الأحزاب السياسية في كثيرٍ من البلاد الإسلامية والعربية وعلى رأسها مصر ولبنان وسوريا والسودان ونيجيريا وماليزيا وباكستان واليمن وغيرها. حيثُ انتقلَ الصراعُ السياسي من أعمدة الصحف والمنشورات في هذه البلاد إلى منابر المساجد، وردهات البرلمانات، ودُورِ الأحزاب، وساحات العمل الوطني بأشكالها المختلفة. ولم يخلُ هذا الانتقال من مناكفاتٍ ومهاترات في كثيرٍ من الأحيان رغم أنه اتخذ من منابر المساجد ساحةً حيويةً له.

وأصبحَ تيارُ الخطابة والكتابة يجريان معاً في قناةٍ واحدة، مما جعل الخطابة السياسية عُنصراً فاعلاً في الحياة اليومية للأفراد. وطُرحت من خلالها العديدُ من القضايا الساخنة التي كثيراً ما أثَّرَتْ في ترجيح كفةِ الطائفة الدينية أو الحزب وامتثال الناس لأطروحاته المختلفة. ومرةً أخرى لعبَ المنبر دوراً دعائياً وإعلامياً بين الناس بإعطاء دفعاتٍ أقوى للعمل الوطني من خلال دوره الاتصالي، وذلك

رغماً عن وجود قنواتِ الاتصال الحديثة التي أسهمت هي الأخرى في نقل فعاليات هذه الخُطب للجمهور خارجِ ساحة المسجد أو مكان الاحتفالِ الخَطابي.



الفصل السادس

❄❄❄❄❄

عنصر الاتصال

في لغة المنبر

الفصل السادس

عنصُر الاتصال في لغة المنبر

❄❄❄❄❄

من خلال تقصي النصوص التي وردت في الخطب الإسلامية تأكد لنا أنَّ المنبر قد غيَّرَ أُسلوبَ الخطابِ الإنساني الذي أصبح وعاءاً لاستيعاب العديد من المعطيات التي أفرزها هذا النمط الاتصالي. وبما أنَّ اللغة قد ظلت هاجساً لكل من تعامل مع منابر الخطابة فقد أصبحت المادةُ الكلامية هي القاسم المشترك بين أشكالها المختلفة.

وبالتالي فقد طرحت نفسها بإلحاح من خلال تحديد دورها في التغيير الثقافي. حيثُ يرى العديدُ من الكُتابِ ومنهم الأستاذ **(أحمد الهاشمي)**[104] أنَّ خُطب المنبر قد بقيَتْ مُتميزةً بين أهل الجزيرة العربية لقرونٍ من الزمان لم يضارعهم فيها أحد.

واعتُبرت صياغةُ العبارات البلاغية فيها فناً قائماً بذاته لم يتصدَّ له إلا ذوو الخبرة والدراية والموهبة الفنية المتميزة، مما اقتضى استخدامَ قوالبَ مُتميزة وأساليب رفيعة لمخاطبة الجمهور. وكان من

---

[104] أنظر السيد أحمد الهاشمي، مرجع سابق، صفحات 44-65.

ذلك أن ظهرَ فنُّ تصوير الأحداث بشكلٍ متجدد غلبت عليهِ المحسنات البديعية والجمالياتُ اللفظية والعباراتُ الرنانةُ ذاتُ التأثير الملحوظ. وبالطبعِ فإنَّ كلَّ شكلٍ من هذه الأشكالِ قد حملَ فكر أمةٍ وثقافتها وأخبارها وتراثها. ولا نكاد نجد عنصراً من هذه العناصر إلا ووجدَ حظاً بين بني الإنسان من خلال اتصالهم ببعضهم البعض أو من خلال تأثرهم بمعاصريهم أو مَنْ سبقوهم.

وليس هناك مدخلٌ إلى عقول الشعوب أفضل من هذه الأساليب الفنية المباشرة التي كثيراً ما اتخذت من اللغات قوالب لها. وذلك لأنَّ اللغات هي أول قنوات الاتصال التي عرفها الإنسانُ منذُ بدءِ الخليقة. وقد تطورت خلال مسيرته الطويلة لتعبر عن حاجاتِهِ المادية والنفسية بشتى ضروبها. ولذلك أصبحت مصدر العزة ومكمن التراث لدى الشعوب.

وبما أنَّ أدوات التعبير التي جاء المنبر على رأسها في المجتمعات الإسلامية قد نشأت لتخاطب العقل البشري، فإنها ظلَّت على مدى الأزمان تحملُ رسالتها بالأسلوب الذى يقتضيهِ الفهمُ القائم على التفسير. وتغلغلت في وجدان الأفراد بالشكل الذى أرادوهُ حتى سادَ الاعتقادُ بأنَّ جميعَ البلاد الإسلامية قد جعلت من المنبر جُزءاً مكملاً لكيانِها الفكري، تُوجهه أينما شاءت، فيسير مغمض العينين مطمئناً إلى ما يَصلُ إليه من خلال الطرحِ المُقدم. وأصبح المنبر

بذلك سلاحاً للمثقفين والعلماء والقادة تقربوا به لغيرهم من الجماعات والأفراد حتى خاضوا جميعَ معتركاتِ العلم والتغيير الحضاري الذي نجحوا في توجيهه بالشكل الذي أرادوه. وقد ساعدهم على ذلك أنَّ لغة المنبر قد كانت جاذبةً في معظم المراحل، حيثُ اتسمت في معظم البلاد الإسلامية بوضوح العبارات وظهور المعاني من خلالها، بحيث يكون الغرض الذي ترمي إليه مفهوماً. ولهذا السبب تجنبَ معظم الخطباء استخدام الكلمات الغامضة والتعبيرات المجازية التي لا تقودُ مباشرةً إلى المعنى.

ولذلك أيضاً اعتمدت لغة المنابر على الجُمَلِ القصيرة، وعدم الفصل بين أجزائها، وعدم إدخال جمل اعتراضية أثناء السياق. ومالَ مُعظمُ الخطباء إلى استخدامِ صِيغِ الاستفهامِ والتعجب التي شعروا بأنها تؤثر في المتلقين.

وقد أكدَّ بعضُ المؤرخين أنَّ الخطباءَ في جميعِ العصور الإسلامية كانوا يستعينون بعرض القصص والأحداث التاريخية للاستشهاد بها أثناء الحديث كما عرضنا لذلك في فصلٍ سابق. حيثُ وجدوا أنَّ هذا الأسلوب ناجعٌ في استمالةِ الجمهور، ولذلك أكثروا من استخدامه.

أما ألفاظُ وعباراتُ الخطابة المنبرية فقد اختلفت بحسب المقام الذي قيلت فيه. حيثُ امتازت خطبُ التهديد والوعيد والدعوة للقتال

وإخضاع الخارجين على القانون بقوة مفرداتها وفخامة تعبيرها والزجر الذي تشتملُ عليه. ومن أمثلتها خطب **(الحجاج بن يوسف الثقفي)** التي ألقاها في أهل العراق[105].

أما من حيثُ الطول والقِصَر فقد اختلفتْ خُطَبُ المنبر من موقفٍ إلى موقف حسبَ المقام الذي قيلت فيه. فهي إذا كانت قصيرةً ومُوجزةً أو مُقتضبة لا تفتح مجالاً واسعاً للنقاش والرأي المناوئ، أما إذا كانت مُطولةً ومتعددة الجوانب فهي غالباً ما تُقدمُ عرضاً لمنهج، أو رأيٍ، أو مبدأ يُرجى اتباعُهُ، فيُؤجج ذلك روحَ الجدلِ والنِقاش بين المتلقين الذين يقفون ما بينَ مؤيدٍ ومساندٍ للطرح أو مُعارضٍ وغير مقتنعٍ به.

ولذلك تميزت لغةُ المنبر عن لغة الشارع العام ولغة الأحاديث اليومية في الدواوين المختلفة، كما تميزت عن لغة المِهَن المختلفة. ففي حين تتميز لغة الأحاديث العادية بالبساطة والوضوح وعدم التعقيد تتسم لُغةُ المنبر بعمق المعاني، وبلاغة التعبير، ورصانة الأسلوب، مع الحفاظِ على وضوح المعنى المراد.

وبذلك أيضاً اختلف أسلوبُ المِنبر عن أسلوب الكتابة الصحفية أو الفنية التي اتخذت لنفسها نمطاً مميزاً. حيثُ تهتمُ المقالاتُ الصحفيةُ بتوضيح المعنى المراد مباشرةً دونَ تكرار العبارات

[105]زكريا عبد الرحمن صيام، مرجع سابق، صفحة 77.

بالشكلِ الذي تنزعُ إليه خُطبةُ المنبر[106]. والخطيبُ عندما يكرر بعض الجمل أو العبارات باستخدام الترادف فهو يحاولُ التزامَ الأسلوبِ اللغوي الكلاسيكي الذي افترضَ التزامَ الأناة وقواعد الإلقاء فضلاً عن تقدير معطيات البيئة الثقافية القائمة.

وقد اقتضت بلاغةُ المنبر وآدابُهُ ألا يستخدم طائفةً مُعينة من المفردات التي تُعتبرُ صعبةً على المتلقي، أو متداخلةً في تركيبها، أو نابيةً في مدلولها[107]. ومن ناحيةٍ أخرى ظلت الجمل المستخدمة في المنابر قصيرةً وواضحة، لأنَّ الخطابةَ دائماً ما تكون أمام جمهورٍ مباشر من السامعين. وهذا الشكلُ من أشكال الاتصال المباشر يُعتبر حساساً ودقيقاً، بل وخطيراً للغاية.

فالكلمة التى تخرج من فم الخطيب لن تعود إلى الأبد، ولذلك فهي لا تحتملُ التردد أو الخطأ أو الحيدة عن المعنى المطلوب. لهذا السبب كلما كانت جُملُ الخُطبةِ قصيرةً وواضحة كلما سهل على الخطيب تدارك هذه الإشكاليات. وبالتالي تجنبت الخطابة الخوض في التفاصيل البيانية والمفردات الصعبة، وتبرأت من العبارات الاعتراضية التي غالباً ما تؤدي لتعقيد الوصول إلى المدلول. والخطابة بهذا المفهوم تميزت على أساليب المعرفة الأخرى كالسرد الإعلامي أو

---

[106] عبد الله عبد الجبار، ومحمد عبد المنعم خفاجي، مرجع سابق، صفحة 145.

[107] زين العابدين حاج عبد القادر، مرجع سابق، صفحة 9.

التقارير الإخبارية التي لا تستدعي وجود عنصر الاستمالة الذي يُفضي للإقناعِ في قنوات الاتصال المباشر. وذلك بحكم أنَّ التقارير الأخبارية قد تكونُ وصفاً حسياً مجسداً لإحدى صور الحياة المُشاهدة بالعين المجردة، أو توصيلاً لمعلوماتٍ مجردة، أو تحليلاً لأحداثٍ حسب رؤية المحلل أو الكاتب. وبالتالي فعنصر المشاركة الوجدانية قد يُغني عن استخدام الحيل اللفظية أو التنسيق البياني لاستمالة المتلقي.

ولكن في حالة المنبر كأحد ظواهر الاتصال ذات الخصوصية يحتاجُ الخطيبُ الذي هو مُقدمُ الرسالة إلى أدواتٍ إضافية تُسهمُ في تثبيتِ المواقف الفكرية والسياسية والعقدية المطلوب إيصالها إلى المتلقي. وقد تجلت هذه المعطياتُ في العديدِ من العبارات التي أصبحت جزءاً من فن الخطابة الإسلامية.

وبالطبع فإنَّ الخطباء يختلفون اختلافاً كبيراً في حجم مَقدراتِهم وشكل مَلَكاتهم الخطابية. ورغمَ أنَّ هذا الاختلاف قد كان أمراً طبيعياً بحكم الفوارق الفرديةِ لدى العنصر البشري بحكم تكوين كل فرد وأساليب نشأته إلا أنه قد أصبح ذا مدلولٍ مهم في تقويم قضيةِ المنبر كأحدِ وسائلِ الاتصال.

وقد ثبتَ أنَّ هناك خُطباءَ مسلمين قليلي التميز في المَلَكات الخطابية وليست لهم أيُّ براعةٍ في الحديث ولا جمال في الأسلوب

ولكنهم تركوا أثراً واضحاً في المتلقين. واستفادَ منهم الجمهورُ أكثر مما استفاد من آخرين كانوا أفصح لساناً وأقدرَ على جذب انتباه السامعين. والسبب في ذلك هو حاجة المتلقي للأمر المطروح [108].

وهذا بدوره يُثيرُ قضية أخرى هي قضية **(الرسالة الإعلامية)** كإحدى أهم العناصر في مجال الاتصال. حيثُ ظلَّتْ مثارَ دراسةٍ على مدى السنوات التي أعقبت بروز علم الاتصال في عام 1948م.

ومن ناحيةٍ أخرى أثار موضوعُ **(الرسالة الخَطابية)** قضيةً أخرى هي قضية **(وحدةُ الموضوع)** المراد طرحه من خلال العرض الخَطابي. حيثُ افترضَ القائمونَ على أمر الخطابة في جميعِ العصور وُجوبَ تناولِ موضوعٍ ذي قيمةٍ للمتلقي إذا أرادَ الخطيبُ أنْ يُفيد السامعين بشيءٍ لم يكن معروفاً لديهم.

ولذلك كان لا بد من إجلاء قيمة الموضوع بشحذ كل العوامل المؤثرة حتى يكون واضحاً وجلياً في أذهان السامعين. ولذلك أيضاً عمد الخطباء إلى تقريب الأمور التي دعوا إليها قدر المستطاع من نفوس الناس حتى أخذوها مأخذ الجد، ووضعوها موضع الاعتبار من خلال تتبعهم لها وتمعنهم الشديد في مضامينها.

وإذا عُدنا ثانيةً للغة المنبر وتابعنا مسارها في فترة ما بعد دولة الخلافة الراشدة لوجدنا أنها تنزعُ إلى الاختزال واختصار الجُمَل،

---

[108] السيد أحمد الهاشمي، مرجع سابق، صفحة 77.

مما جعلَ ذلك عُرفاً من أعرافها المتوارثة طوال تلك المرحلة [109]. ولعلَّ ذلك قد فرضته طبيعة الاستخدام اللغوي في تلك الفترة التي ازدهرت فيها الفنونُ اللغوية أكثر من ذي قبل. لذلك أيضاً اختلفت لغةُ المنابر القديمة عن لغة المنابر الحديثة.

كما اختلفت عن لغة أجهزة الاتصال المعاصرة كالراديو والتلفاز والسينما بحكم ما جدَّ من اهتمامات فرضتها روحُ العصر. وكان القائمونَ على أمرِ المنابر قد اشترطوا أن يكونَ مضمونُ الخطبة مُرتباً ترتيباً منطقياً يبدأ بالمقدمة، ثم العرض، ثم الاستدلال، ثم النتيجة.

وهذا الترتيب الذي التزم به جميعُ الخطباء جعل من المنبر مؤسسةً جادةً أعانت المتلقين على مُتابعة رسالتها، كما جعلتِ الخطباءَ ينجحون في خلق التأثير الذي توقعوه في سامعيهم على مر الأجيال. وأكثر من هذا أنَّ الانضباط والالتزام بأسس هذا النمط الفني جعل من خُطبة المنبر مادةً خِصبةً للفقهاء والنقاد والدارسين في مختلف البلاد الإسلامية. وتأكيداً لذلك الأمر قال (**جوستاف لوبون**) Jostaf Lobon في كتابه روح الاجتماع:

(إنَّ البراهين والأدلة لا تأخذ من نفوس الجماعات، ولهذا كان الخطباء الذين يعرفون كيف تتأثر إنما يخاطبون شعورها دون

---

[109] زكريا عبد الرحمن صيام، مرجع سابق، صفحة 73.

العقل. لأنه لا سلطان لقواعد المنطق عليها، فلأجل إقناع الجماعة ينبغي الوقوف أولاً على المشاعر القائمة بها والتظاهر بموافقتها فيها ثم يحاول الخطيب تعديلها بموازنات صغيرة عادية).

الدعاية والإعلام الخطابي

إذا تأملنا من خلال هذا السرد نماذج الخطابة الكلاسيكية في العالم الإسلامي لوجدنا فيها أساليب مختلفة للعطاء تراوحت بين الدعاية، والإعلام، والإقناعِ، والإفهامِ، والتعليم، والتربية، وتغيير السلوك البشري. ولو نظرنا إليها من زاويةٍ أخرى لوجدناها تمثلُ السلاح الأمضى لتنفيذِ الأهدافِ والسياسات، والراية المرفوعة في كل المحافل باسم الدين، أو باسم الحكومات، أو باسم الوطن الذي تُبثُ فيه الخطبُ على العامة من أبناء الدولة، وربما بالثلاثة معاً.

ولو تمعنًا في أسباب ذلك لوجدناها عديدةً ومتشعبة، ولكنَّ قاسمها المشترك هو تبني أسلوبٍ فاعلٍ ومؤسس لنشر المعارف والعلوم والأفكار. وبما أنَّ انتشارَ الإسلام ذاتِهِ قد كان سريعاً بشكلٍ أدهش كل القاطنين في جزيرة العرب وما حولها فقد أثار ذلك حميةَ الجدل والمنافسة والمعارك الكلامية بغرضِ المعرفة والتطور الذي عمَّ جميعَ أساليبِ الحياة [110].

---

[110] السيد أحمد الهاشمي، مرجع سابق، صفحة 112.

وفي نفس الوقت كان نزولُ القرآنِ الكريم الذي جاءَ بأساليبَ حديثة ومعانٍ مختلفة ورؤىً متجددة قد بعث في نفوسِ البشرية روحاً جديدة من الطموحِ والتفنن في الاقتباس والاستشهاد بما جاء في كتاب الله. فجاءت الخطابةُ أداةً رفيعةً ومؤثرة لتغيير حال الجماعاتِ والأفراد في زمانٍ قلت فيه وسائلُ الاتصال الأخرى وانعدمت فيه تقنياتُ العصر الحديث، فأصبح الخطيبُ هو جهاز الإعلام المتكامل الذي وضع لبنات التغيير الفكري والاجتماعي بشكلٍ لم يَقِلْ عما فَعلتهُ وسائلُ الاتصال الجماهيرية في زماننا الحاضر.

ولهذا السبب فإننا رأينا أنَّ من الواجب أن تُدرِجَ الخطابةُ في سلك وسائل الاتصال. وهذا الإدراجُ سيُغني الباحثين والدارسين والممارسين لمهنة الإعلام من كثيرٍ من الجهد الذي يبذلونه الآن وهم يُحاولون التأريخَ لعلم الاتصال.

ثم إنَّ علماء الاتصال والعاملين في حقله سيجدون الحلقة المفقودة في ربط أساليب الاتصال القديمة بالأساليب الحديثة، خصوصاً وأنَّ علم الاتصال قد لهث كثيراً في البحث عن النماذج الدامغة لتبرير أهمية التغذية الراجعة Feedback كإحدى أهم عناصر العملية الاتصالية.

وفي هذا الإطار لن يجد الباحثون أسلوباً اتصالياً أفضل من الخطابة الإسلامية لدراسة رد الفعل أو التغذية الراجعة وأثرها في

المتلقين خصوصاً عندما يكونون جماعةً في حجم أُمة. ثم إنَّ الخطابة هي درع الإسلام القوي الذي يجعلنا نتمسك بحقنا في وضعها بموضعها الصحيح وسط وسائل الاتصال حتى نؤكد تأثير الإسلام التاريخي على الشعوب، وأنه قد وضعَ اللبناتِ الأساسيةَ لعلم الاتصال من خلال توظيفِهِ لهذا الفن الرفيع وليس الغربيين الذين يدعون ذلك زوراً وبُهتاناً.

المنبر أم الإنترنت؟

بعد هذا الاستقراء والدراسة لدور المنبر عبر العصور نعود إلى جدلية تقسيم وسائل الاتصال التي أجحفت في حقه ولم تضعه في موضعه الصحيح. ونقولُ في هذا الإطار إنَّ علماءَ الغرب هم الذين قاموا بتقسيم هذه الوسائل إلى مكتوبة وإلكترونية، وحددوها بسبع وسائل هي التي أشرنا أليها آنفاً، وأضاف إليها بعضُ المختصين ومنهم جون فيفيان John Vivian في أواخر عقد التسعينيات شبكة الإنترنت لتكون الوسيلةَ الخامسة في الوسائل الإلكترونية، ويُصبحُ العدد الكُلي ثماني وسائل جماهيرية.

وحسناً فعل هؤلاء ومنهم جون فيفيان Vivian لأنهم لم يتقيدوا بالأطُر والقوالب التقليدية، وإنما أعملوا فكرهم كأساتذة لعلم الاتصال. ولم يستأذنوا أحداً في إضافة هذه الشبكة المهمة لوسائل الاتصال

الجماهيرية. وبالطبع فإن إضافة هذه الشبكة لقنوات الاتصال الجماهيرية قد تمَّ بعدَ استقراء دقيق لمقوماتها وخصائصها التي أهلتها لهذه الإضافة. وأوضح ذلك مستر فبفيان بشكلٍ جلي من خلال وجهة نظره عندما وضع لها فصلاً كاملاً في كتابه The Media of Mass Communication **(وسائل الاتصال الجماهيرية)** الذي صدر في عام 1997م [111].

وقد حذا هذا الحذو كُتابٌ آخرون لهم أهميتهم مثل: جوزيف ر. دومنيك Joseph R. Dominick، وشيرلي بياجي Shirley Biagi، في حين أغفل إضافتها كُتَّابٌ آخرون مثل وارن آجي Warren K. Agee بجامعة جورجيا، وفيليب أولت Phillip H. Ault من مؤسسة ساوث بِنْت تريبيون الاتصالية الأمريكية، وإدوين إمِري Edwin Emery من جامعة منسوتا [112]، حيثُ رفضوا إضافةَ شبكة الإنترنت إلى وسائل الاتصال الجماهيرية في مؤلفاتهم التي صدرت بعد عام 1997م رغماً عن دوره الواضح وبروزها المبكر نسبياً منذُ عام 1962م.

ولعلنا الآن نفعل الشيءَ ذاته بإضافتنا للمنبر لوسائل الاتصال الجماهيرية. ولعل هذا الطرح يكونُ مقبولاً من علماء

---

[111] John Vivian, (1999), The Media of Mass Communication, Fourth Edition, Allyn & Bacon, Boston.

[112] أنظر كتاب المدخل لوسائل الاتصال، (1997م)، تأليف وارن آجي، وفيليب أولت، وإدوين إمري، لونقمان، نيويورك، صفحات 110–150.

الاتصال المسلمين وغير المسلمين والذي نتمنى أن يتجاوز حاجز الخوف والرهبة من عدم اعتراف عُلماء الاتصال والمنظرين بالمنبر إلى اليوم. ونحنُ عندما نطرحُ هذا الأمر نعلمُ أنه أمرٌ حساسٌ وخطيرٌ للغاية خصوصاً لدى المنظرين الغربيين. ولكننا نطرحه إحقاقاً للحق، وسعياً وراء التأطيرِ العلمي المنزه عن الغرض، والقائم على أساس الحُجَجِ والبراهين وليس على أساس الإثارة أو الانحياز لقضايا أمةٍ من الأُمم أو عقيدةٍ من العقائد.

وقطعاً فإنَّ علم الاتصال لا يُشرفُهُ أنْ يَظلَّ بمنأى عن حقائق الإنجازات البشرية ما دامَ هو علماً من أجل البشرية. ولسنا في هذا الأمر مُثيرين لجدلٍ عقيم، أو ساعين لتغذية خلافٍ مذهبي، أو تنقيصٍ من قَدْرِ الآخرين، وإنما كل الذي نسعى إليه أن يتجنبَ أهلُ العلمِ التدليس ما داموا على جادة الطريق، وأن يتحاشوا الكيلَ بمكيالينِ الذي أضرَّ بقضية العدالةِ عندما تبنته الدوائرُ السياسية في مختلف الدول لاسيما الدول الكبرى والاستعمارية منها.

ولعلَّ في هذا الأمر استصحاباً للقيم العلمية نفسها القائمة على أُسسِ الحياد، والنزاهة، وسرد الحقائق، بدلاً عن التهميش الناتج عن الغرض. ولا شكَّ أنَّ في مثلِ هذا الحيادِ تقديراً للعلم ذاتِه ما دام قائماً على الحقيقة ولا شيء سواها. ولعل غياب المعلومات أو تغييبها خلال القرون الماضية في كثيرٍ مما يخص التاريخ الإسلامي والواقع

الإسلامي والرؤى الإسلامية قد أدى إلى كثيرٍ من التناقضات التي أدَّت إلى ظهورِ عُلومٍ ناقصة وقاصرة، ولم تَفِ بالغرض الذي أُقيمتْ من أجله. وهنا تأتي مسئوليةُ علماءِ الاتصال الذين يعنيهم هذا الأمر فماذا هم قائلون؟

وفي حقيقة الأمر فإنَّ طرح قضية المنبر بهذه الصورة قد نتيجةَ استقراءٍ طويل للحقائق والمعلومات من خلال الإيمان بقضية التأطير لعلم الاتصال نفسه الذي ما زال في طور البناء بحكم أنه أحدث العلوم الإنسانية التي لم تكتمل حلقاتها بعد [113].

ولما كان هذا العلم قد ظلَّ لعقودٍ طويلة أسيراً لدى العلماء الغربيين فقد ركزوا كل اهتمامهم على التجارب الغربية، في حين أنَّ عملية الاتصال عمليةٌ إنسانية بدأت مع بدء الخليقة وتطورت مع تطور البشرية في زمانٍ لم يكن فيه للغرب وجودٌ في ظاهرِ الحضاراتِ الإنسانية.

وقضية الاتصال في الواقع ليست أمراً جِهوياً يمكن طلاؤه بمسحة الشرق أو الغرب أو بنزعةٍ عنصريةٍ أو عقديةٍ أو آيديولوجيةٍ تنزع إلى استبعاد هذا العنصر أو ذاك وفقاً لمُقتضى الحال.

---

[113] نشأ علم الاتصال الحديث علي يد العالم الأمريكي هارولد لاسويل في عام 1948م من خلال مقاله الشهير الذي صاغه بعنوان تنظيم ومهام الاتصال في المجتمع، وقد وجه فيه الأسئلة الخمسة التي اعتُبرت بداية علم الاتصال وهي: مَنْ؟ يقولُ ماذا؟ لمن؟ بأية قناة؟ وبأي أثر؟

كلمة أخيرة

إنَّ الإحساس بالمرارة سيظلُّ يعتملُ في صدور كثيرٍ من الشعوب التي غيَّبَها التجاهلُ المتعمد من الأمم الغربية. حيثُ تعوَّد الغربيون على تجاهل تجارب هذه الأمم خصوصاً الأُمة الإسلامية. وغَذَّتْ كراهيتهم المستفحلة تجاه المسلمين تلك النزعةُ التي بدأت بمؤتمر بازل بسويسرا في عام 1897م الذي تم فيه وضع بروتوكولات بني صهيون Protocols of Zion. بل قد تعودُ إلى ما هو أبعد من ذلك أي إلى سقوط غرناطة التي زالت بسقوطها دولةُ الأندلس، وانطوت بزوالها صفحةٌ من أنصع صفحات أوربا لتبدأ مرحلةٌ جديدة من الهوس العدائي المستفحل ضدَّ المسلمين.

ورغم أنَّ العارفين ببواطن الأمور من الأوربيين أنفسهم يُدركون حجم الدور الذي لعبه المسلمون في نقل مختلف العلوم الإنسانية إلى أوربا عبر الأندلس إلا أنَّ الأوربيين قد حاولوا قدر المستطاع طمس هذه الحقائق إلا ما استعصى عليهم. وحاولوا إزالة المعالم التاريخية الدالة على النهضة الإسلامية في طُليطِلَة، وأشبيلية، وغرناطة. ونسوا أنَّ كل المعطياتِ الثقافية التي أزكت مناظراتهم مع علماء **(فاس)** فيما بعد والتي استمرت لأعوامٍ وأعوام قد كانت بفضل تلك الانتقالة التي أزكى شرارتها علماءُ المسلمين. وبعد أن اضمحلت الحضارة العربية في الشرق بعد مجيء التتار بقيادة **(هولاكو)**

وانكسرت شوكة العلوم في كثير من الأمصار استمرت في بلادهم وبلاد المغرب العربي لا لشيء إلا لصدى الحضارة الإسلامية في الأندلس التي خلدت من خلال مختلف الفنون خصوصاً فن العمارة الذي ظهر في **(مسجد مرَّاكِش)** و**(مسجد الرباط)** و**(مسجد غِرناطة)**. وهو المسجد الذي تحول إلى كنيسة وقُطعت مئذنته ووضع في مكانها الصليب. وفي داخله أُقيمَ قبرٌ للرحالة **(كريستوفر كولمبس)** مُكتشف القارة الأمريكية وغيره من المشاهير. كما هُدِمَتْ الحماماتُ العربية التي أنشأها المسلمون وكذلك القصور التي لم يُستَنقَذْ إلا بعضُها مثل **(قصر الحمراء)** وقصر **(الكزار)** في قُرطُبة [114].

ونسي أولئك الأوربيون دور المسلمين في خلق نهضتهم الحديثة رغم أنهم ينظرون يومياً لما بقي من آثار تلك الحضارة التي بقيت رغم أنفهم مثل تمثال العالِم الإسلامي الكبير **(ابن رُشد)** الذي كثر تلاميذُهُ من المسلمين، ثم ظهر له عددٌ من التلاميذ اليهود والمسيحيين وعلى رأسهم تلميذه اليهودي **(موسى بن ميمون)** وعدد كبير من الذين تأثروا به من كبار المفكرين المسيحيين في كنيسة روما الكاثوليكية. كما ينظر الأوربيون إلى تاريخ المسلمين في بلادهم من خلال التمثال الضخم في إسبانيا الذي يُصورُ اليد اليُمنى للشاعر

---

[114] من حديث الأستاذ الدكتور مدثر عبد الرحيم الطيب في كتاب (لهبٌ من نار المجاذيب)، تأليف د. عوض إبراهيم عوض، تحت الطبع.

المبدع **(ابن زيدون)** وهو يُمسكُ بيد معشوقته **(ولادة بنت المستكفي)** رمزاً للعشق الإنساني الخالد[115]. إنَّ نزعة العداء الغربي المستفحل ضد الإسلام ليست أمراً جديداً، وإنما دعمتها وغذتها العديد من المواقف السابقة واللاحقة في جميع الاتجاهات السياسية والفكرية والعقدية والعلمية. حتى خرج رئيسُ الحكومة الفرنسية بقوله بالعبارة الواضحة في رده على محاولات تركيا الانضمام لمنظمة البُلدان الأوربية: ((**إنَّ المنظومة الأوربية لا يمكنها قبول تركيا بأي حالٍ من الأحوال لأنها بلدٌ مسلم، وبلاد أوربا بلادٌ مسيحية لا تقبلُ اعتناقَ الإسلام..**))

هكذا وبكل بساطة لخصَّ الأوربيون قضية الإسلام الذي جاء للبشريةِ كافةً وليس لأبناء الدول غير الأوربية، رغم أنَّ أول من نقل لتركيا المسلمة نزعة القومية هم اللاجئون البولنديون والمجريون حينما دخلها الكونت قسطنطين بورزيسكي Constantin Borziskey الذي اعتنق الإسلام ونشر كتاباً لتوضيح تلك الحقائق في عام 1869م أسماه **(أتراك الأمس وأتراك اليوم)** [116]. لقد تجاهل الغربيون دور الإسلام، وطمسوا الحقائق التي تؤكد ذلك الدور في تحريك دولاب العلوم

---

[115] المرجع السابق.

[116] برنارد لويس، الغرب والشرق الأوسط، صفحة 127، من كتاب د. يوسف محي الدين أبو هلالة، (1408هـ)، الإعلام في ديار الإسلام، بداية ورسالة، دار العاصمة، الرياض، صفحة 97.

والثقافة والسياسة في أوربا. وتجاهلوه من خلال إسقاط حق الدولة الإسلامية في أن يكون لها صوتٌ دائم في مجلس الأمن، وتجاهلوه بحرمان أي بلدٍ مسلم من حق النقض Veto، وتجاهلوه عندما حاولوا التأطير لنظريات الإعلام التي حصروها في أربعِ نظريات ليس للإسلام بينها موقع، وتجاهلوه عندما قسموا الجوائز العالمية للإنجاز الإنساني مثل جوائز نوبل وغيرها، وتجاهلوه عندما تقاسموا الأدوار في تنظيم المهرجانات الرياضية العالمية كالأولمبياد وغيرها.

وفي نهاية المطاف قضوا عليه عندما شعروا بأنَّ دور المسلمين قد بدأ يتعاظم في منظمة الأمم المتحدة، وذلك في دورة المنظمة لعام 1974م حيثُ أُعلنت الدعوة التي قدمها الرئيس الجزائري الراحل **(هواري بومدين)** لإعادة النظر في النظام العالمي وضرورة إعادة تشكيله على نسقٍ عادل خصوصاً في مجالي الاقتصاد والإعلام.

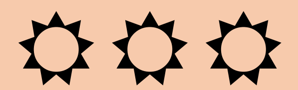
وفي ذلك الوقت كان بين الدول الإسلامية والعربية والأفريقية وغيرها من بلاد ما سُمِيَ بالعالم الثالث ترابطٌ شديد وتعاضدٌ وثقةٌ بالنفس لا تحدها حدود، مما مكنهم من تمرير كل القرارات التي اتفقوا عليها داخلَ الجمعيةِ العامة للأمم المتحدة والهيئات الأخرى التابعة للمنظمة الدولية. وكان الغربيون بالمقابل قد تضعضعوا في تلك المرحلة غاية التضعضع، وبدأوا يتحدثون بشكلٍ علني عن الأغلبية

الميكانيكية التي تؤدي لتمرير القرارات في الأمم المتحدة، وذلك عندما شعروا بأن معظم المستعمرات السابقة التي استقلت وأصبحت ذات عضوية بالمنظمة الدولية قد بدأت تتكتل ضدَّ الدول الغاصبة التي أذلتها في الماضي وأذاقتها ويلات الاستعمار. وبدأ الغربيون يفكرون جدياً في ضرورة تحجيم هذه المنظمة التي أعطت مثل هذا الحق للمسلمين والمستضعفين لينتقموا من صلف المستعمرين الذين ساموهم أشد أنواع العذاب.

لكل هذه الأسباب فإنَّ على المسلمينَ أن يقوموا بأنفسهم بوضع الأُطُر للعلوم التي لهم يدٌ في تأسيسها وقد بنى لها مبتكروها الأساس المتين منذ أقدم العصور، أو إضافة معطياتهم الفكرية والعلمية أو الدينية التي لا تتعارض مطلقاً مع الحقائق العلمية. وبذلك وَحْدَهُ يمكننا أن نضمنَ عدمَ التجني على الواقع، ونحفظُ دورنا التاريخي في مجالات العلوم الإنسانية.

ولا بد أيضاً من وضع هذه الحقائق والمعلومات ضمن المناهج التعليمية والمؤلفات التي نقومُ بتدريسها في مؤسساتنا العلمية حتى لا تنطلي على أجيالنا القادمة أُطروحاتُ المدلسين وذوي الغرض سواءٌ كانوا غربيين أو شرقيين أو حتى من أبناء جلدتنا الذين انطمست فيهم حمية العقيدة وخامر عقولهم الشك المفضي إلى الهلاك دون أن يضعوا ذلك في حسبانهم. كما أنَّ لبعضِ الشرقيين أيضاً دوراً كبيراً في

طمسِ معالم الحضارة الإسلامية. وقد استفحل ذلك الدورُ إبانَ سطوة النظرية الماركسية التي تلاشت الآن وعدائها السافر للإسلام. ولهذا أيضاً يجبُ طَرْحُ هذه الحقائق والدفاعِ عنها في كل المحافل والأوساط العلمية الدولية حتى يتم الاعتراف بها من أجل الحقيقة والتاريخ.



المصادر والمراجع:

القرآن الكريم:

- سورة الرعد، الآية 28 ﴿**الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر اللهِ تطمئنُ القلوب**﴾.

- سورة طه، الآية 44 ﴿**فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى**﴾.

- سورة آلُ عمران، الآية 191 ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾.

- سورة الذاريات، الآية 56 ﴿**وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون**﴾.

- سورة الزُمَر، الآية 9 ﴿**أمن هو قانتٌ آناء الليل، ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمةَ ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب**﴾.

- سورة البقرة، الآية رقم 282، ﴿**وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يُضار كاتبٌ ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيءٍ عليم**﴾.

- سورة التوبة، الآية 108 ﴿**لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يومٍ أحق أن تقوم فيه، فيه رجالٌ يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهِّرين**﴾.

- سورة التوبة، الآية 19 ﴿**أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عن الله، والله لا يهدي القوم الظالمين**﴾.

- سورة المجادلة، الآية 11 ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح اللهُ لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ واللهُ بما تعملون خبير**﴾.

- سورة طه، الآية 114 ﴿**فتعالى اللهُ الملك الحق، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليكَ وحيُهُ وقُل ربِّ زدني علماً**﴾.

- سورة الإسراء: الآية 53 ﴿**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن**﴾.

- سورة الأحزاب: الآية 70 ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يُصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم**﴾.

- سورة الجمعة: الآية 10 ﴿**فإذا قُضِيَت الصلاةُ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله**﴾.

- سورة الغاشية: الآية 21-22 ﴿**فذكر إنما أنتَ مُذكرٌ لستَ عليهم بمصيطر**﴾.

- سورة الشعراء، الآية رقم 226 ﴿**والشعراء يَتَّبِعُهم الغاوون، أما ترى أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون**﴾.
- سورة الشعراء، الآية رقم 227 ﴿**إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظُلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلبٍ ينقلبون**﴾.
- سورة يس، الآية رقم 69 ﴿**وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين**﴾.
- سورة الجمعة، الآية رقم 2 ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين**﴾.

<u>كتب الحديث النبوي الشريف:</u>

- صحيح البخاري.
- صحيح مسلم.

<u>المراجع باللغة العربية:</u>

- إبن منظور، لسان العرب.
- أحمد المزعنن، (1410هـ)، مصادر الأخبار في العهد المدني، دار صبري، الرياض.

- الشيخ طوالبي، (1988م)، المساجد في الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت.
- السيد أحمد الهاشمي، (1989م)، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، بيروت.
- الزوزني، (1972م)، شرح المعلقات السبع، مكتبة المعارف، بيروت.
- الجاحظ، 33/2، البيان والتبيين، طبعة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- الطبري 6/ 3، في تاريخ الأدب العربي، لشوقي ضيف، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة. - أنيس المقدسي، (1980م)، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، مكتبة الجيل، بيروت.
- أنيس المقدسي، (1980م)، الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة، مكتبة الجيل، بيروت.
- برنارد لويس، الغرب والشرق الأوسط، من كتاب د. يوسف محي الدين أبو هلالة، (1408هجرية)، الإعلام في ديار الإسلام، بداية ورسالة، دار العاصمة، الرياض.
- تقرير شبكة ياهو Yahoo الأمريكية عن استخدام الإنترنت لعام 2000م، والذي صدر في يوم 31 ديسمبر 2000م.

- عبد الله عبد الجبار، ومحمد عبد المنعم خفاجي، (1987م)، قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
- عبد الله قاسم الوشلي، (1988م)، المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلقات العلمية، (1988م)، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- عبد العزيز محمد اللميم، (1991م)، رسالة المسجد في الإسلام، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- علي عبد الحليم محمود، المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي، دار المعارف المصرية، القاهرة.
- عوض إبراهيم عوض، (1999م)، المدخل إلى وسائل الاتصال الجماهيرية، دار يونيفيزيون للطباعة والنشر، كوالا لمبور.
- عوض إبراهيم عوض، لغة الإذاعة دراسة تحليلية، (2001م)، دار النشر جامعة الخرطوم.
- عوض إبراهيم عوض، (2000م)، الإذاعة السودانية في نصف قرن، دار الخرطوم للطباعة والنشر، الخرطوم.
- عوض إبراهيم عوض، لهب من نار المجاذيب، تحت الطبع.
- زكريا عبد الرحمن صيام، (1983م)، الأدب العربي في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، دار النصر للطباعة الإسلامية.

- زين العابدين حاج عبد القادر، (1979م)، مذكرة في تاريخ الأدب العربي (القسم التوجيهي)، وزارة التربية، كوالا لمبور.
- حامد عبد الواحد، (1984م)، الإعلام في المجتمع الإسلامي، سلسلة دعوة الحق، دار الصحافة الصحافة والنشر، رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.
- حنا الفاخوري، (1985م)، الموجز في الأدب العربي وتاريخه والأدب العربي القديم، دار الجيل، بيروت.
- خير الأسماء شافعي، (2000م)، دور المسجد في بناء الحضارة الإسلامية، دراسة بحثية غير منشورة.
- شوقي ضيف، (1963م)، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة.
- صلاح الصفدي، (1953م)، معجم الأدباء والوافي بالوفيات، تحقيق مرجليوث، الجزء السادس، المطبعة الهاشمية، دمشق.
- محاضير محمد، الإسلام الذي أُسيء فهمه، (1990م)، ترجمة عوض إبراهيم عوض، المركز العربي الأفريقي، كوالا لمبور.
- محمد بن عبد الوهاب، (1956م)، مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- محمد إبراهيم محمد إبراهيم، (1406هـ)، الجانب الإعلامي في خطب الرسول صلى الله عليه وسلم، مكتبة شركة الخاني، الرياض.

- محمد أبو زهرة، (1934م)، الخطابة أصولها، تاريخها في أزهر عصورها، دار الفكر العربي، القاهرة.
- محمد مختار علي (1402 هجرية)، دور المسجد في الإسلام، مطبوعات رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة.
- محمد علي التهانوي، (1996م)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، الجزء الثاني: تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت.
- محمود علي عبد الحليم، (بدون تاريخ)، المسجد وأثره في المجتمع الإسلامي، دار المعارف المصرية، القاهرة.
- محمود محمد قلندر، (1999م)، الاتصال الجماهيري، النظريات والوسائل والنماذج، دار يونيفيزيون للطباعة والنشر، كوالا لمبور.
- محي الدين عبد الحليم، (1984م)، الإعلام الإسلامي وتطبيقاته العملية، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض.
- يوسف محي الدين أبو هلالة، (1408هـ)، الإعلام في ديار الإسلام بداية ورسالة، دار العاصمة، الرياض.
- وارن آجي، وفيليب أولت، وإدوين إمري، لونقمان، المدخل لوسائل الاتصال، (1997م)، نيويورك.

المراجع بالإنجليزية:

- Awad Ibrahim Awad, (1999), Communication Law and Ethics, Univission Press, K.L

- Boyd, Andrew, (2000), Broadcast Journalism: Teaching of radio and T.V Lews .London: Heinemann .

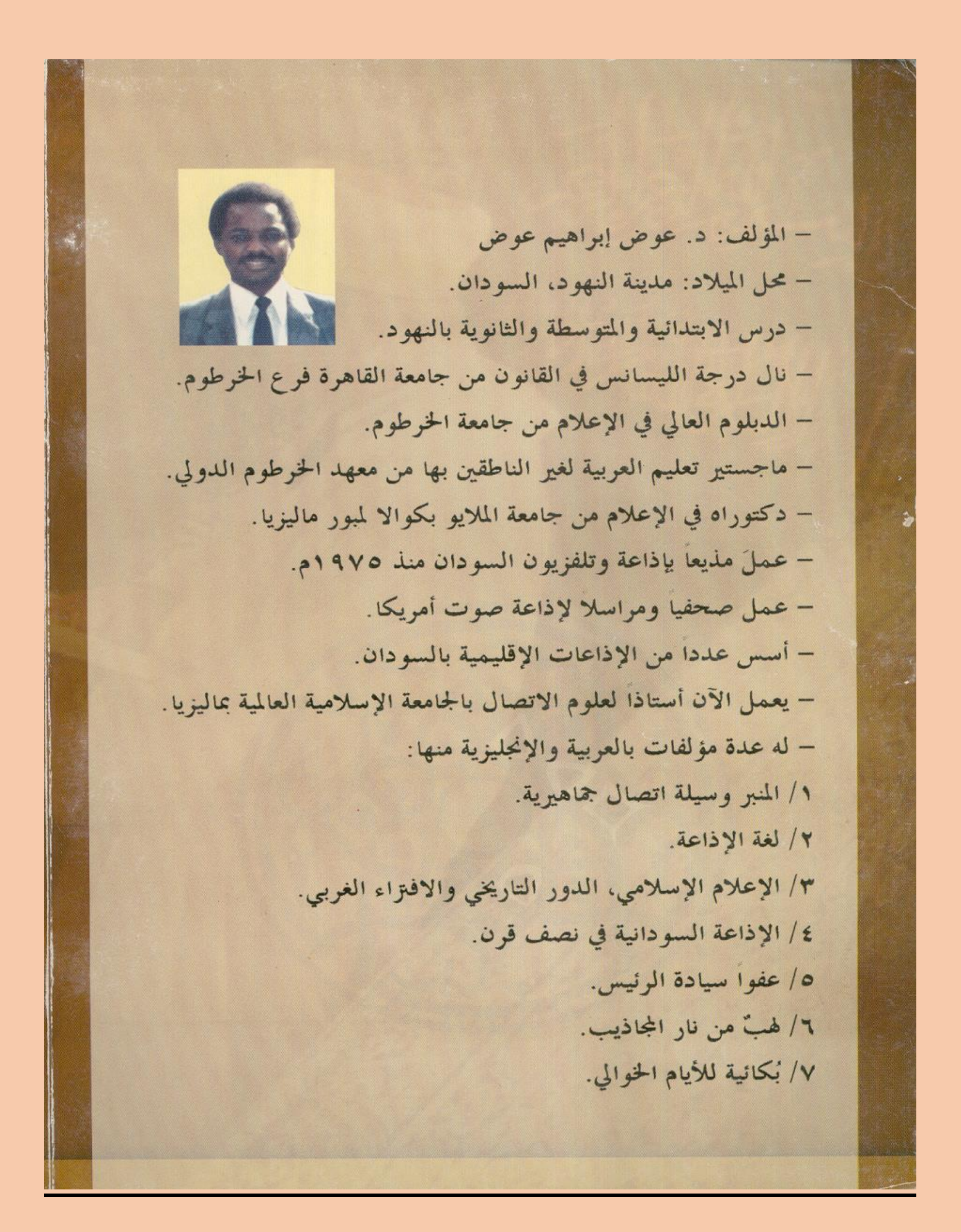
- Cooper, L. (1998), The Rhetoric of Aristotle, Quoted in Martin & Chaudhary, Comparative Media System New York: Longman.

- Joseph R. Dominick, (1999), The Dynamics of Mass Communication, Sixth edition, McGraw-Hill College.

- John Vivian, (1999), the Media of Mass Communication, Fourth Edition, Allyn & Bacon, Boston

- Marchal McCluhan, (1967), The Medium is the Message, New York, Pantam.

- Shirley Biagi, (1997), the Media Impact, Wadsworth Publishing Company, Washington.


- المؤلف: د. عوض إبراهيم عوض
- محل الميلاد: مدينة النهود، السودان.
- درس الابتدائية والمتوسطة والثانوية بالنهود.
- نال درجة الليسانس في القانون من جامعة القاهرة فرع الخرطوم.
- الدبلوم العالي في الإعلام من جامعة الخرطوم.
- ماجستير تعليم العربية لغير الناطقين بها من معهد الخرطوم الدولي.
- دكتوراه في الإعلام من جامعة الملايو بكوالا لمبور ماليزيا.
- عملَ مذيعاً بإذاعة وتلفزيون السودان منذ ١٩٧٥م.
- عمل صحفيا ومراسلا لإذاعة صوت أمريكا.
- أسس عددا من الإذاعات الإقليمية بالسودان.
- يعمل الآن أستاذا لعلوم الاتصال بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.
- له عدة مؤلفات بالعربية والإنجليزية منها:
١/ المنبر وسيلة اتصال جماهيرية.
٢/ لغة الإذاعة.
٣/ الإعلام الإسلامي، الدور التاريخي والافتراء الغربي.
٤/ الإذاعة السودانية في نصف قرن.
٥/ عفواً سيادة الرئيس.
٦/ لهبٌ من نار المجاذيب.
٧/ بُكائية للأيام الخوالي.